مطبوعات أخبار اليوم

قطاع الثقافة

مذكرات الولد الشقى

محمود السعدنى





قطاع الثقافة

مذكرات الولد الشقى

« الجزء الأول »

محمود السعدنى

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة
القاهرة
تليفون / فاكس
٥٧٩٠٩٣٠

الغلاف بريشة الفنان / مصطفى حسين

تصميم الغلاف / أشرف حسين

مذكرات الولد الشقي

مقدمة المؤلف

الأخطاء تصبح معالم على الطريق إذا استطاع المرء أن يستفيد منها ويحولها إلى تجارب ! ولكنها تصبح مجرد أخطاء فقط إذا مرت بالمرء ثم مرت عليه ، وقد تتحول فى النهاية إلى خطايا ، فيذهب من أجلها إلى « اللومان » ، وقد يتشعلق بسببها فى حبل المشنقة ، والذى يساعده الحظ فينجو رغم أخطائه من « اللومان » ومن المشنقة ، يصبح مجرد حيوان ليس له غد ، ولم يكن له أمس !

وعلى هذه الصفحات ستقرأ مايسميه البعض « قصة حياتى » ولكنى أسميها « أخطاء حياتى » ، ولقد كانت حياتى سلسلة من الأخطاء المتصلة ، استفدت من بعضها ، وأرجو أن يستفيد القراء من البعض الآخر !!

وعلى هذه الصفحات ستقرأ قصص ملوك ، وقصص « صياع » وقصص أبطال فى ثياب رعاع ، وقصص رعاع لهم حركات الابطال !

وبقدر ما كانت هذه الأيام عاصفة ، بقدر ما كانت لذيذة ، وبقدر ما كانت بائسة ، بقدر ماكانت عريضة ، ورغم الظلام الذى اكتنف حياتى ، ورغم البؤس الذى كان دليلى وخليلى ، إلا أننى لست آسفا على شيء . فلقد كانت تلك الأيام حياتى ! ومن عصير تلك الأيام ، ومن رحيق تلك الليالى ، خرج الى الوجود ذلك الشيء الذى هو أنا !

وسواء قرأت هذه الصفحات ولعنت حياتى ، أو قرأتها ورثيت لها ، فأنا على أية حال عشتها ولعنتها . . ولكنى أحببتها كثيرا !

وفى رواية لاروين شو تقول زوجة أحد الأبطال لزوجها « إنك ترفض الدفن الآن وكنت من قبل تلعن حياتك ، لم تكن هذه حياة ، ولكنها كانت محنة ، فلم تكن تشرب إلا أردأ أنواع الكونياك ، ولم تكن تدخن إلا أحقر أنواع السجاير ، ولقد كنت على الدوام عاطلا من كل موهبة ، وكنت فى أغلب الأحيان عاطلا عن العمل . وعندما توفاك الله ظننت أنك ستسر كثيرا ، ولكنك الآن ترفض الدفن وتريد أن تعود إلى الحياة ! ولكن دعنى أقل لك بصراحة : ماأغباك ، فما كان أتعس حياتك » .

ورد عليها الميت الذى يرفض الدفن « كل هذا صحيح ، ولكنها كانت حياتى . . وأنا أحبها » .

هكذا أنا أيضا أقول . . على أى وجه كانت الحياة فى أيام الطفولة فأنا أحبها ، فقد كانت حياتى !

محمود السعدنى

(١)

مازلت أذكر كل شيء كأنما حدث بالأمس ! كتاب الشيخ محمد وتلاميذه الفقراء .. أتعس تلاميذ على وجه الأرض ، جلاليب وقباقيب وشباشب وجزم برقبة ، وألواح اردواز ، وأصابع طباشير ، وفي جيوب بعضهم ملاليم .

والشيخ محمد قصير كأنه تلميذ نسيه أهله فشاب شعر رأسه ، مقوس تماما كأنه حدوة حصان انبرت من كثرة الاستعمال ، ليس له بيت فهو ينام في المدرسة ويسهر الليل بطوله في قهوة السروجي يلعب الكوتشينة ، وهو دائما يغادر القهوة آخر الليل يترنح ويلعن سنسفيل جدود الذين غلبوه . . ولكنه رغم ذلك كان شديد الحرص على شيئين اثنين في الحياة ولا شيء أكثر ، طابور الصباح في المدرسة وسط التلاميذ المهربدين المعمصين المرتعشين من البرد والجوع . يصرخ معهم بصوته المسلوخ ، مصر العزيزة لي وطن ، وهي الحمى وهي السكن ، ثم وقوفه عند الباب أول كل شهر يجمع مصاريف الدراسة وفي يده خرزانة لهلوبة ، المصاريف خمسة قروش صاغ ، وياويل الذي يحضر أول الشهر وليس معه شيء ، اللهلوبة إذن هي اسلوب التفاهم الوحيد !

وكنت ـ والحق يقال أنيقا ـ وسط المجموعة ، جلبابي مخطط ، وحذائي برقبة ، ومعي لوح اردواز ، وفي جيبي مليم وأحيانا مليمان ! وكما كان الشيخ مواظبا على الوقوف بالباب أول كل شهر ، كنت أنا الاخر مواظبا أكثر على دفع الخمسة قروش ، ولم يكن ثمة تعليم ولا ثمة دراسة ، مصر العزيزة لي وطن ، وهي الحمى وهي السكن ، وخطبة منبرية عن محمد على باشا الكبير ، وكان الله بالسر عليم .

وكان يمكن أن تمضي الحياة في كتاب الشيخ محمد هانئة ولذيذة كما هي دائما ، لولا صدقي باشا ، ورغم أني طفل في السادسة ، وفي كتاب الشيخ محمد ، إلا أن السياسة ـ قاتلها الله ـ تتدخل أحيانا لتفسد حياة الصغار !

صدقي باشا طردوه من الوزارة في عام ١٩٣٣ ، وهبت مصر كلها تهتف بسقوطه ، وتهتف لسقوطه ، ومرت مظاهرة من أمام مدرسة الشيخ محمد ، وخرج جميع التلاميذ يتفرجون على المظاهرة ، وبقيت وحدي أرسم على لوح

الاردواز جملا بثلاثة رجول : وفجأة شعرت بمغص شديد فى بطنى ، فجلست وسط الحجرة وقضيت حاجتى فى هدوء شديد وفى بهجة أشد . ثم نهضت مرتاحا وعدت الى لوح الاردواز أرسم جملا بثلاثة رجول ، وبعد قليل عاد التلاميذ وعاد الشيخ محمد ، وبدأ كل شيء يأخذ مجراه ، ولكن الشيخ محمد توقف فجأة . وأمسك أنفه وصاح صيحة مروعة وكأنه طارق بن زياد .

ـ فيه كلب ميت فى الفصل .

وركع الشيخ محمد على الأرض وراح يتشمم هنا وهناك ، ولأنه ضعيف البصر فقد راح يتحسس الارض بأصابعه ، وفجأة غاصت يده فى شيء طرى ، فلما رفع يده الى وجهه صاح مرة اخرى ويده مرفوعة الى أعلى منعاصة ومعكوكة .

ـ مين اللى عمل دى ياولاد الكلب .

وخيم صمت رهيب على الفصل فلم يتكلم احد ، وأعاد الشيخ محمد صيحته وكررها أكثر من مرة ثم وقف فى هدوء شديد ، ومسح يده فى جبته ، وقال فى منتهى الوقار .

ـ الصدق منجى . . اللى عمل دى يقول وانا أسامحه . .

وصدقت الشيخ فرفعت أصبعى فخورا كأننى غزيت عكا . . وقبل ان يصل إصبعى الى رأسى كانت عصا الشيخ محمد تسلخ جلد وشى بالعرض وبالطول ، ولم أحتمل كل ذلك فخرجت من كتاب الشيخ محمد أجرى الى بيتى ، وأقسمت وأنا أجرى وألهث ألا أقول الصدق !

وجاء الشيخ بعد ذلك بأيام يسحبنى الى المدرسة ولكنى رفضت ، فضلت الحارة على مدرسة الشيخ محمد ، وظللت أحمل له بغضا شديدا والى سنوات طوال ، وكنت أحيانا أنتظره وهو خارج من المقهى لأقذفه بطوبة أو أدفعه ليقع فى الطين .

وذات مساء وكان البرد شديدا وقفت انتظر الشيخ محمد خلف المقهى حتى يخرج ، وعندما خرج جئته من خلفه وأغرقته بجردل ماء بارد ، فانتفض الرجل صارخا وهم بالجرى فتعثر وسقط ، وأشفقت عليه فساعدته على النهوض ، ووقف طويلا يشتم فى الاعمى الذى أغرقه بالماء من عمارة طويلة ظن ان الماء جاءه منها ، وطيبت خاطره بكلمات وسحبته من يده فى الشارع الى مدرسته ، واكتشفت فى الطريق أنه يكاد يكون أعمى ، وأنه بائس وضائع وغلبان أشد الغلب ، ومن تلك الليلة أحببت الشيخ محمد . . ونسيته ! . .

وقضيت شهرا فى الحارة ألعب مع أولاد أم صفيح ، وكانت أم صفيح امرأة غريبة وبائسة الى أقصى حد ، وكانت تسكن خلف بيتنا فى الخلاء الواسع فى بيت من صفيح ، كانت أمى سليطة اللسان حادة الطبع قوية الشخصية . بعكس أبى

الذى كان شغوفا بالنكته يضحك من الاعماق ، وكان طيب القلب منطو ى الشخصية مسالما إلى أبعد حد !

وكانت أم صفيح وأبناؤها يسطون دوما على عشة فراخ أمى وعلى غسيلها المنشور ، فأطلقت أمى على المرأة الغلبانة هذا الاسم .. أم صفيح ! وأغرب من ذلك ان المرأة المسكينة اشتهرت به حتى أصبح علما عليها ! وكنت أحب اللعب مع أبناء أم صفيح رغم نصائح امى المتكررة وزعيقها الذى لاينقطع ، وكانت اللعبة المفضلة لديهم هى قذف المارة فى الطريق بالطوب .

وذات صباح مر فى الشارع رجل اسود كالليل ، طويل كالمارد ، سريع كأنه أرنب جبلى ، وقذفه أبناء أم صفيح بالطوب وطاروا فى اتجاه المزارع وطرت معهم ، وطار الرجل الاسود المارد خلفنا ولكنه لم يلحق إلا بى ، وظل يضربنى وأنا أصرخ ولامغيث ، وكان الرجل مفترسا فلم يتركنى إلا وأنا منزوف الانفاس مقطوع القلب غارقا فى الدم .

ومن ذلك اليوم هجرت الحارةالى مدرسة الشيخ عبدالعال ، وكان الشيخ عبدالعال شيخا وفسد ، طردوه من الأزهر لبلادته فاستأجر منزلا مهجورا وحوله الى مدرسة ، وخلع الجبة والقفطان وارتدى البدلة والطربوش ، وأمسك فى يده بمنشة ليف ، وكان سمينا كالطور ثقيل الدم كأنه ترسة ، مفترسا كأنه ضبع ، وقضيت فى مدرسة الشيخ عبدالعال ثلاثة أشهر .. ثم حدث أن دخل حارتنا ساعة عصارى وفى يده بطيخة وفى يده الاخرى شمامة ، وفى جيوبه ليمون وفجل والمنشة الليف بين أسنانه ، وعندما مر من امامى ضحكت فتوقف الشيخ عبدالعال والتفت نحوى ، فلما رآنى ازداد غيظه ، ونادانى فوقفت ، وأنبنى على ضحكى وألقى على مسامعى درسا فى السلوك والآداب ثم مد يده نحوى بالبطيخة وأمرنى أن أحملها عنه الى المنزل ، ولكن يده ظلت معلقة بالبطيخة فى الفضاء ، فلما نهرنى بشدة ، سقطت المنشة من بين أسنانه ، فأنفجرت ضاحكا وتقهقرت الى الخلف ، فانحنى الشيخ يلتقط المنشة فسقطت البطيخة وانكسرت ، ولما حاول ان يلتقط البطيخة ، سقطت منه الشمامة وتدحرجت على الارض ، ثم تدحرج منه الليمون وذهبت كل ليمونة فى اتجاه ، وأصبح منظر الشيخ عبدالعال مضحكا للغاية ..

وتظاهر هو بأنه يجمع الليمون واقترب منى وهبدنى قلما وشلوطا رمانى على الارض ، فلما نهضت كان منظره يدعو الى الضحك اكثر فضحكت مرة اخرى وجريت من امامه ، فلما حاول ان يلحق بى قذفته بطوبة بطحت رأسه ، وأقسم يومها ان يقتلنى ، وأقسمت ألا أذهب الى مدرسة الشيخ عبدالعال !

وتنقلت بين اكثر من كتاب وأكثر من مدرسة ، وعندما جاء الصيف قرر خالى أن يلحقنى بمطبعة طوال الصيف ، وسحبنى من يدى وأنا لا أدرك شيئا ووقف مع

صديقه صاحب المطبعة واشار نحوى ، وهمس لصديقه بكلام لم أسمعه ثم تركنى وأنصرف ، ووقفت عند الباب لا أفعل شيئا ، ثم نادانى الرجل وأمرنى بالذهاب الى القهوة واحضار مقعد ليجلس عليه احد اصدقائه ، وذهبت وعدت بعد ساعة ، والكرسى فوق رأسى يكاد يقطم رقبتى ، وعندما رآنى انهال على رأسى ضربا . ثم دفعنى بقدمه الى داخل المطبعة وصفعنى على وجهى بقسوة ، ثم شتمنى وخرج !

ووقفت وحيدا وسط المطبعة أبكى فى صمت واجز على اسنانى من شدة الغيظ . ولا أدرى كم مضى من الوقت وأنا واقف وحدى وسط المطبعة أجفف دموعى بجلبابى وأتطلع من خلال الباب المفتوح الى الذين يعبرون الطريق فى صخب شديد ، ولكن فجأة دخل الرجل الى المطبعة ومعه فتاة تضحك فى دلال وتهتز وتقفز كأنها فرخة يطاردها أحد ، ونظر الرجل نحوى فى غيظ شديد وركلنى بقدمه وأمرنى بالوقوف عند الباب . ثم وقف يضحك مع البنت ويتكلم فى هدوء ، ثم دعاها الى الدخول فى حجرة نظيفة بها مكتب ، وعلى الجدار صورة ضخمة لرجل يرتدى نيشانا ويكبس على رأسه طربوشا وله شارب ضخم عريض ، وعلى صدره نيشان اضخم من شنبه ، وغاب الرجل مع البيت طويلا ، ودخلت الى المطبعة ووقفت أختلس النظر من خلال ثقب الباب ، وكانت البنت مطروحة على كرسى جلد والرجل يجثم على صدرها كأنهما فى عراك . والبنت تدفعه بيديها ، وتصرخ احيانا ، وهو يشد شعرها ويمزق ملابسها .

واستغرقتنى الفرجة فنسيت نفسى ، ألقيت بجسمىّ كله على الباب فانفتح فجأة ، وهب الرجل واستدار نحوى مذعورا وشهقت البنت وصرخت ، ووقفت لحظة ملبوخا ، ثم انطلقت بأقصى سرعة الى الطريق .

ومضى الصيف سريعا وأنا ألعب فى الحارة واستعد لدخول المدرسة الابتدائية ، وعندما جاء شهر رمضان كدت أطير من الفرحة ، ففى رمضان استطيع أن أسهر كما أشاء ، فلا أحد ينام ، وكانت هوايتى الكبرى هى الاستماع الى الشحاتين وهم يطوفون بالابواب بعد المغرب .

وكانت لذتى الكبرى هى الاستماع الى بنت غجرية ـ كما كانت تسميها أمى ـ تحضر الى حارتنا بعد العشاء وتقف على كل باب ، ومعها رق تضرب عليه وتغنى بصوت لم أسمع أجمل منه أبدا ، وكانت البنت جميلة ومليئة وترسم على دقنها وشما ، وكان صوتها يسيل حزنا وهما وكأن حنجرتها جرح يسيل .

وكنت أتبعها ساعات طويلة وهى تخرج من بيت لبيت ومن حارة لحارة ، حاملة الشوال الضخم على كتفها ممسكة فى يدها بلقمه جافة تقضم منها كلما

كفت من الغناء ، وكنت كلما عدت الى البيت بعد رحلة مضنية كهذه . . تستقبلني أمي بقسوة ، وكانت تصرخ وهي تضربني .
ـ أنا عارفة عاجبك إيه في الغجرية دي ، عاجبك نواحها ، دي بتنوح .
وكانت أمي صادقة ، فقد كانت البنت تنوح ، وكان نواحها جميلا ولذيذا ، وكانت أمي تحذرني من المشي وراءها لأنها غجرية وأنها ستسحبني يوما وتسرح في بلاد الله ، وكان هذا الخاطر يطوف بي أحيانا ، فأتمنى لو تحقق تحذير أمي وسحبتني البنت الغجرية لأتفرج على بلاد الله ، فلم أكن حتى هذه السن قد خرجت من الجيزة بعد ، وكنت أتخيل البلاد الأخرى شجرا وحدائق ومخاليق مثلنا يقيم كل منهم في طبق ، صورة غريبة لا أعرف لماذا رسمتها في خيالي لكل بلد آخر أسمع به أو أسمع عليه .

وكان يعبر حارتنا أيضا كل صباح موكب عجيب مكون من خمسة رجال أصحاء وفي منتهى القوة ، ليس معهم سوى شيلة بسيطة من الكحك ، يهتفون معا بصوت منغم ورخيم وقوى ، ستين كحكة بقرش أبيض ، وكنت أتعجب لهذا الجيش الجرار من الرجال الأقوياء الذين يحملون هذه الشيلة التي أستطيع حملها وحدي .
وكنت أتفرج عليهم وأشترى منهم أحيانا وأتمنى من صميم قلبي أن أسرح معهم أبيع مثلهم لأكون حرا بعيدا عن رقابة أمي التي تلاحقني كالديدبان ، فلقد كنت وحيدا ، مات أبنها الأكبر وبقيت أنا مع خمس بنات ، وكانت دائمة الشجار مع بناتها وشديدة القسوة عليهن .
وكانت اذا صفت أحيانا جلست بينهن تتدرب على نطق الحروف وهجاء الكلمات ، وعندما يسخرن منها تنهال عليهن ضربا بالشبشب ويتحول البيت الى عويل وعواء وكأننا في حديقة حيوان ، ثم تهدأ أخيرا وتجلس فوق الكنبة تبكي وتندب حظها المنيل لأنها فقدت ابنها الاكبر بينما بقيت بناتها متمتعات بالعافية والصحة !
وكان أبي يحمل معه عند العودة جريدة الصباح ، وكان من عادته أن يجلس معها يقرأ لها الحوادث التي وقعت وأخبار السياسة والقصص وأنباء الوفيات ، وكان كلما نطق باسم ميت تقاطعه بشكل حاسم ، وتحكى قصة مختلقة عن هذا الميت وأسرته وبلدته وأقربائه وأصهارهم وأنسبائهم ، وهي قصة مختلقة طبعا لا علاقة لها بالميت ، وكان أبي يدرك هذا جيدا ولكنه كان يستمع إليها في شغف فقد كانت تجيد فن الحكاية ، وكانت تبدو في أسعد لحظات حياتها عندما تحكى بلا انقطاع .
وكانت اذا قاطعها أحد أو انبرى لتكذيب روايتها . . تصدت له في جنون .

ولقد حدث مرة أن هتف أبى باسم ميت فقالت على الفور . . آه ، دا م المنوفية ، من عيلة أبو مرزوق اللى مناسبين جماعة أبو الغيط اللى تبقى مرات عبدالعليم عمة ابن أخوه ، اللى اللى اللى ، وهات يا كلام أكثر من ساعة ، وأبى ساكت ينظر اليها فى هدوء ، وعلى شفتيه ابتسامة .

فلما سكتت تماما وهدأت تماما ، قال أبى بنفس الهدوء لكن دا مش م المنوفية . فردت أمى على الفور آه يبقى من عائلة أبو مرزوق بتوع الشرقية حاكم بتوع الشرقية وبتوع المنوفية يبقوا قرايب ، ما هو محمد أبو مرزوق . . يبقى . . ويبقى . . و . . و . . وقال أبى بنفس الهدوء بس الراجل ده من فلسطين ، من غزة ! . . وسكتت أمى فترة قبل أن تقول ، ما هى غزة دى فى المنوفية برضه ، قال أبى ، لأ ، فى فلسطين ، وسكتت أمى ولم تتكلم .

ومضى الصيف سريعا وجاء الشتاء ، وارتديت البدلة والطربوش لأول مرة فى حياتى ، ووضعت فى جيبى قرشا كاملا ، وخرجت من منزلى ذات صباح فى عام ١٩٣٥ ، فى طريقى الى المدرسة الابتدائية !.

(٢)

وذات يوم قالوا لنا إن الملك فؤاد مات ، ولم أكن أعرف من هو الملك فؤاد ولماذا مات ولا كيف يموت الناس . ولكنه كان يوما سعيدا لأن المدرسة أغلقت أبوابها ووضعونا فى أتوبيسات وذهبوا بنا إلى القاهرة ، ووقفنا ننشد نشيدا ، ولكن عندما بدأ موكب الميت يمر من أمامنا تركنا العلم يسقط وكفت حناجرنا عن الصراخ ، ورحنا نصفق ونضحك كلما مر أمامنا موكب العلماء والوزراء والجهلاء الى آخر المواكب التى انتظمت فى الجنازة .

منذ هذا اليوم البعيد الذى دخلت فيه المدرسة الابتدائية أصبح لى أصدقاء !
كان زميلى فى حجرة الدراسة اسمه عبدالسلام ، وكان بيته يقف على رأس حارتنا .

وكان سمينا كأنه دكر بط ناصح ، وكان يأكل فى اليوم ثلاثة صحون كشرى بدون شطة ، وكنت آكل صحنا واحدا بالشطة ثم أظل أشكو من بطنى طول النهار .

ورغم أن عبدالسلام كان ثريا إلا أنه لم يكن مشتركا فى مطعم المدرسة ، فقد كان أبوه عصاميا رحل من الصعيد فى نهاية القرن الماضى وجاء الى القاهرة فقيرا لا يملك شيئا ، ثم لم يلبث أن أصبح ثريا وصاحب شركة للسيارات . ولكنه رغم غناه ظل محتفظا بأسلوبه القديم فى الحياة . وكان الرجل العصامى الذى احتفظ بزى المشايخ الى آخر يوم من أيام العمر ينفق على أولاده عن سعة ، ولكنه ظل يسكن الحارة التى شهدت بداية كفاحه فلم يغادرها إلا جثة فى رحلته الأخيرة الى القبر !

وكان عبدالسلام رغم حجمه ذكيا خارق الذكاء ، ولكن ذكاءه كان من النوع الهادىء الذى لا تلمحه العين بسرعة ، وكان فى ذكائه خبث غير شرير . خبث طيب اذا جاز التعبير ، وكان يستخدم خبثه فى حماية نفسه ولكن ليس لالحاق الأذى بالغير .

ومع أن عبدالسلام ، هو أول من تعرفت به ، إلا أننى كنت أفضل صحبة غزالى عليه ، وكان غزالى على عكس عبدالمنعم ، كان فقيرا مثل حالى ، وكان طيبا الى أقصى حد ، مغامرا الى حد الانتحار ، وفيا الى درجة الاستشهاد من أجل صديقه ، أحمق الى حد الجنون !

وكان مولعا بالاذى للاذى ذاته . يقذف المارة بالطوب ، ويقذف المدرسين بالطباشير ، ويدخل فى معارك حامية طول النهار مع الطلبة ، ويلعب بالكورة

حتى يفقدها ، فيلعب بطوبة ولا يكف حتى تبطحه الطوبة وتسيل منه الدماء !
وكان على عكسنا جميعا كمال . كان هادئا كأنه تمثال ، بطيء الحركة كسلحفة ! وكان يتيم الأم ، ضعيف البنية مثل حالى !
ولأن جو المدرسة كان جديدا علينا فقد نجحنا بتفوق ، وعندما انتقلنا الى السنة الثانية تدحرجنا الى أسفل قليلا فدخلنا سنة ثانية(ب)وكنا جميعا فى أولى أول . ولكن العام الذى قضيناه فى المدرسة أكسبنا تجارب عديدة فأصبحنا نهتم بأشياء أخرى غير الكتب والكراريس وحصص الحساب والجغرافيا . .
وذات يوم قالوا : إن الملك فؤاد مات ، ولم أكن أعرف من هو الملك فؤاد ولماذا مات ولا كيف يموت الناس ، ولكنه كان يوما سعيدا لأن المدرسة أغلقت أبوابها ووضعونا فى أوتوبيسات وذهبوا بنا الى القاهرة . ووقفنا على الرصيف نرفع علما وننشد نشيدا ، ولكن عندما بدأ موكب الميت يمر من أمامنا . . تركنا العلم يسقط وكفت حناجرنا الضعيفة عن الصراخ ، ورحنا نصفق ونضحك كلما مر أمامنا موكب العلماء والوزراء والجهلاء الى آخر المواكب التى انتظمت فى الجنازة .
وكان الى جوارنا مدرسة أخرى هى مدرسة محمد على الابتدائية ، وكانت مدرسة محمد على تنافسنا فى الكورة ، فلما رأيناها على الرصيف طاف بخاطرنا أنها جاءت تنافسنا فى الجنازة . لذلك تداولنا بسرعة لهزيمة مدرسة محمد على والانتصار عليها .
وكان موكب ضباط الشرطة هو الذى يمر أمامنا حين تعالت هتافاتنا يا محنى ديل العصفورة ، والجيزة هى المنصورة ، وياسالمة يا سالامه رحنا وجينا بالسلامة . وانفعلت مدرسة محمد على فردت علينا ، وزاط الرصيف كله ، وتطورت الهتافات الى العبيط أهه ، أهه ، وكان التابوت نفسه يمر أمامنا فى تلك اللحظة ملفوفا بعلم أخضر على مدفع طويل يشبه مدافع رمضان .
وتراءى لحضرة الناظر أن يفرض نفوذه علينا فدفعنا فى غيظ على الرصيف ، فدفعنا الخلق الذين يقفون خلفنا الى الشارع . واندفعنا نحن بلا مقاومة ، ودفعنا حضرة الناظر معنا فسقط على الأرض وسقطنا فوقه وأصبح الأمر فوضى ، وانطلقت الصفافير من كل جانب ، وانطلقت فرق بلوكات النظام تهرسنا بالاحذية وتضربنا بالشوم ، وقمنا جميعا نجرى وسط الجنازة ونقتحم مواكب العلماء والوزراء والجهلاء ونفركشها ، وأصبحت الجنازة مسخرة ومضحكة وضاع وقارها بسبب ديل العصفورة والجيزة هية المنصورة !!
وعدت الى الجيزة فى ذلك اليوم مشيا على الاقدام ، فلم يكن فى استطاعتنا العودة الى الاتوبيس بعد أن طاردتنا عصى العساكر الى بعيد ! وكان رفيق رحلتى

هو غزالى ، وعدنا نضحك برؤوس مبطوحة وأكتاف مخلوعة وجاكتات مقطوعة .
ولم يدرك أحدنا لا أنا ولا غزالى أن فعلتنا ستترك أثرا ، وأننا سنلقى عليها جزاء شديدا !! .

فلم نكن قد اقترفنا ذنبا ، وإنما شقاوة لذيذة ومعركة حلوة انتصرنا فيها على مدرسة محمد على ورفعنا رأس مدرستنا ، وعلى الناظر أن يكافئنا أعظم مكافأة ! .

ولقد كافأنا الناظر فعلا مكافأة عظيمة ، فما كدت أخطو الى المدرسة فى صباح اليوم التالى ، حتى شدنى عم محمود من قفاى الى حجرة الناظر ، وعلى الباب رأيت غزالى واقفا ووجهه نحو الحائط ويداه الى أعلى وطربوشه مكبوس فوق رأسه بفعل فاعل .

وبهدوء شديد وبدون أمر من أحد . . وقفت على بعد ذراع من غزالى ووجهى نحو الحائط ويداى مرفوعتان الى أعلى فى استسلام شديد !

وسألت غزالى همسا وأنا ملزوق فى الحائط عن سر هذا التعذيب الأزلى ؟ فضحك ضحكة خاطفة وغمز لى بعينه أن أسكت فسكت ! وطالت وقفتنا ونحن على هذا الوضع ، والبرد يأكل أبداننا ، وزاد من تعذيبنا أن كل من يمر خلف ظهورنا من المدرسين يتمهل ويلزقنا فى لطف ويسأل نفسه .

ـ همه دول العيال اللى عملوا الدوشة إمبارح ؟ .

إذن فهذا التعذيب من أجل إمبارح ، وما حدث منا لم يكن نصرا على مدرسة محمد على ولكنه كان دوشة ، ولا أحد يعلم عاقبة الدوشة إلا الله ، ووقفنا وقفة الأسرى حتى المساء ، ثم خرج الطلبة من الفصول وتجمعوا فى الحوش وانتظموا فى طوابير مستقيمة وخرج حضرة الناظر مبسوطا مرتاحا وفى يده عصا طويلة ورفيعة وراح يحجل أمامنا ، وعم محمود البواب يسوقنا أمامه حتى أصبحنا فى المنتصف تماما والطلبة فى حلقة محكمة حولنا .

ولما هل حضرة الناظر زعق ظابط الالعاب تعظيم سلام ، انتباه . وانتبهوا جميعا وانتبهنا معهم ، ولكنه انتباه غائم مهزوز ، فلقد أكل الذعر قلبى وشعرت بأنى سائر الى الموت ولا مغيث . وهذه حفلة إعدامى ولا شك وأمام الجميع وسيشمت خصومى ويضحك أعدائى من تلاميذ سنة ثانية أول .

ونظرت الى وجه غزالى فلم ألمح شيئا ، كان وجهه جامدا ونظراته مصوبة نحو لا شىء ، بينما كانت رأسى تتحرك كأنها بزمبلك ، وعيونى تمسح الطوابير كلها ولا تستقر على شىء .

وصاح حضرة الناظر فى جميع التلاميذ أن يستمعوا جيدا لما سوف يقول ، ثم شرح لهم فعلتنا المهببة التى أطاحت بكرامة الميت ، ومن هو الميت ؟ أنه سيد

البلاد والعباد جلالة الملك المعظم فؤاد الأول يرحمه الله ، ومن الذى أطاح بكرامة الميت هذه الكلاب الجربانة - أنا وغزالى - أولاد الكلب عديمى التربية والذوق والأخلاق .

ثم سكت فجأة وصفق التلاميذ بشدة ، ثم طرحونا أرضا ، وفى لحظة كانت العصا تمزق أقدامنا وتمزق جلودنا وصراخنا يعلو للجو ولا مغيث . وعندما غابت شمس ذلك اليوم كنت أزحف كالدودة مع غزالى إلى حارتنا ومعنا أمر بعدم العودة الى المدرسة مدة أسبوع ، وحرمان من الفسح بعد ذلك مدة شهر واعتذار كتابى من ولى الأمر وتعهد بعدم العودة الى مثل هذا مرة أخرى !!.

إذلال ما بعده إذلال . . ولكنى أكون كاذبا ابن كاذب لو ادعيت الآن أننى شعرت بهذا الاذلال فى ذلك الوقت ، ولقد كانت المسألة عادية تماما ، شقاوة من جانبنا ، وضرب من جانبهم ، وكان الله يحب المحسنين ! . .

ليس هذا فقط ، فالغريب أن العلقة أفادتنا ، لقد أصبحنا أشهر تلميذين فى المدرسة ، وطار صيتنا الى المدارس الاخرى ، واستخدمنا الناظر نفسه بعد ذلك فعهد الينا بمهمة تشجيع فريقنا فى مباريات الكورة ، ومنحنا هذا المنصب امتيازات كثيرة . التزويغ من الدراسة يوم المباراة ، وتناول الطعام مع فريق الكورة لتصبح حناجرنا قادرة على الهتاف والصراخ والعويل ! .

ولكن هذا الاسبوع الذى قضيناه خارج المدرسة كان له أثر بعيد فى حياتنا . كنا نذهب الى حديقة الأورمان نسرق بلحا ، أو نقف عند كوبرى عباس نشاهد جموع الصيادين فى الصباح الباكر وهم يجمعون السمك من الشباك فى ضجة هائلة كأنهم فى معركة .

وفى نهاية أسبوع الصياعة بعنا ما معنا من كتب ودخلنا سينما الأهلى ، وتفرجنا لأول مرة على فيلم نسور الجو بطولة عباس فارس ، ولم نفهم شيئا منه إلا طيارات تطير فى الجو وعباس فارس يحتضن امرأة فى نهاية الفيلم . ولكن كان هناك فيلم قصير عرضوه علينا قبل « نسور الجو » هو الذى لا يزال عالقا فى ذهنى . فيلم عن إعدام جندى جيش فى ساحة ضرب النار بالعباسية .

ولا أدرى ما هى التهمة التى أعدموه من أجلها ، ولكن منظره لا يفارق خيالى حتى هذه اللحظة . منظر العسكرى الشاب وهو يمضى معهم فى هدوء الى الساحة بخطوات عسكرية ، ومنظره وهو جالس على الكرسى والعساكر منبطحة على وجوههم استعدادا لضرب النار ، ثم الضابط الذى تقدم فى النهاية وسدد نحو رأسه طلقة من مسدسه جعلت رأسه تتدحرج فوق صدره ، ثم السلام الملكى بعد ذلك والعلم الأخضر يخفق فوق الرؤوس !!.

وعدنا الى المدرسة ومعنا قصص كثيرة وحكايات لا تنتهى . وعندما نضب معيننا من الحكايات رحنا نحكى قصصا مختلقة ومغامرات لم يكن لها وجود قط !.

ولكن بقيت هناك أشياء تؤرقنا ، هى مشكلة الكتب التى بعناها لنتفرج على السينما . ولم يكن مصروفنا يساعدنا على شراء الكتب ، ولم تكن لدينا الجرأة لنصارح أهلنا بحقيقة الأمر ، ولم يكن أمامنا إلا أن نسرق هذه الكتب .

وعندما استقر الرأى على ذلك رحنا نستعرض أسماء الطلبة فى الفصل ، وانتهينا الى حقيقة غريبة وهى أنه لا يوجد فى فصلنا من يستحق السرقة . لقد كانوا جميعا مثلنا ، أبناء عمال وموظفين صغار ، فانتقل بحثنا الى سنة ثانية أول ، وكان بها توأما شديدا الشبه ، شديدا الشغف بالدراسة . فائقا التفوق . وكان لهما بشرة بيضاء وعيون زرق وشعر أصفر ، وكانا لا يخالطان أحدا من تلاميذ المدرسة وكأننا عقارب أو خنافس أو ذباب . وكانت كتبهما دائما نظيفة ودائما عامرة بالخطوط الزرقاء والحمراء تحت السطور ، وعلى الهوامش ملاحظات وتعليمات .

وكان التوأمان مضرب المثل فى المدرسة ، إذا أراد الناظر أن يوبخ تلاميذ المدرسة كلها بسبب القذارة استشهد بنظافة التوأمين ، وإذا أراد أن يعايرنا لبلادتنا استشهد بتفوق التوأمين ، وإذا أراد نصحنا بعدم الشقاوة نصحنا بأن نسلك سلوك التوأمين وأصبح التوأمان بذلك أعداء لنا جميعا ، نمقتهما ونكرههما ونحتك بهما لنؤكد تفوقنا العضلى عليهما ولنتمكن من هزيمتهما فى ميدان آخر غير النظافة والدراسة والسلوك !

ولقد ظل هذان التوأمان جنبا الى جنب فى كل مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية ثم فى كلية الطب ، وهما الآن طبيبان ناجحان يعملان معا وفى عيادة واحدة فى القاهرة ، وهما نوابغ فى الطب ، ولكن ليس فى رأسيهما شىء غير المرض ، والأدوية وتطورات الطب .

المهم أننا اتفقنا على سرقة التوأمين ، ورحنا نرتب الأمر ليبدو كل شىء عاديا حتى لا يتكرر نفس المشهد الذى حدث بعد جنازة الملك فؤاد .

ولكن . . . عندما جاء اليوم الذى حددناه للسرقة ، حدث شىء غريب !.

(٣)

ولقد كرهت الحساب من أجل الزمراني ولا أزال ، ورغم أني أحببت الزمراني بعد ذلك وصادقته ، إلا أنني لم أتخل عن عداوتي لعلم الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات !

كانت مدرستى هى المدرسة اليتيمة فى الجيزة ، وكان بينها وبين بيتى خمسة كيلو مترات ، وكانت تقف على حافة المزارع وفى منطقة موحشة تتخللها مستنقعات وبرك ومساحات شاسعة من الأرض الفضاء . وفى هذه المساحات الخالية إلا من التراب وأكوام الزبالة ، استطاع مليونير يونانى أن يجمع ثروة قدرها عدة ملايين من الجنيهات ، وأن يصبح بارونا من بارونات العصر وله عدة سرايات فى القاهرة وفى الريف وعدة جزر فى اليونان . .

ولقد جاء الرجل اليونانى فى بداية القرن فقيرا لا يملك ثمن ساندويتش ، يربط ساقه المجروحة بشاشة ، ثم لم يلبث أن اشترى مائة حلوف وأطلقها فى خرابات الجيزة تأكل من القمامة والزبالة وتسمن وتتضاعف حتى أصبحت بالملايين . وسرحت قطعان الخنازير فى الجيزة وتعدت منطقة الخرائب الى الشوارع والحارات ، وانتشرت أكثر فدخلت البيوت واقتحمت الدكاكين ، وحملت معها الجراثيم ، وأصبحت وباء يهدد الجيزة كلها . وكان كلما جرؤ واحد من أهل الجيزة على الثورة ضد الرجل اليونانى وحلاليفه ، تدخل البوليس فيلقى القبض على الرجل الثائر ويلقيه فى السجن بتهمة السرقة . . .

ولم يكن الرجل اليونانى يخشى ضررا يقع على قطيع الخنازير ، فليس لحم الخنزير مما يؤكل فى الجيزة ، ولذلك ظل الخواجا فى قصره على النيل فى الزمالك يتصل عن طريق التليفون بمأمور الجيزة كلما انتابت الثورة أحد الناس فجرح خنزيرا بطوبة ، أو ركله بحذاء !

وفى ذلك اليوم البعيد الذى اتفقنا فيه على سرقة التوأمين خرجت من بيتى مع غزالى نخوض فى أوحال الجيزة ونقتحم خراباتها نحو المدرسة . . وعند الأرض الفضاء التى تسرح فيها قطعان الخنازير خطرت لنا فكرة شيطانية هى سرقة حلوف من هذه الحلاليف نركبه حتى المدرسة .

وفعلا وقع اختيارنا على حلوف سمين كأنه جاموسة وامتطينا ظهره ، ولكن الحمل كان ثقيلا عليه فلم يخط خطوة واحدة الى الامام . لذلك اختار غزالى حلوفا آخر امتطى ظهره ، وذهبنا الى المدرسة لأول مرة نركب شيئا آخر غير الاقدام . واستقبلنا طلبة المدرسة بمظاهرة ، وخرج الناظر يستطلع الأمر فاضطررنا الى إخفاء الحلوفين فى حجرة الرسم ، حتى لا يقع بصر الناظر عليهما وحتى نستطيع استخدامهما فى الركوب عند العودة !

ودخلنا الفصول وانتظمنا فى الدراسة ومرت الأمور بخير والحمد لله ولكن لم تكد تبدأ الحصة الثانية حتى دخل الناظر ومن خلفه وكيل الرجل اليونانى صاحب الخنازير وأشار نحو غزالى ثم أشار نحوى وأمرنا بالخروج . . وعندما أصبحنا فى الحوش وجدنا الحلوفين يسرحان فى هدوء فى حوش المدرسة ومن خلفهما ضابط الالعاب يرعاهما بعصاه ، وفى الحوش فصل بأكمله ومعه كراريس ضخمة ومدرس الرسم يرسمون جميعا منظر الحلاليف التى ترعى فى المدرسة !

واكتشفنا بعد لحظات أن وكيل الخواجا أكتشف سرقة الحلوفين بعد دقائق من السرقة ، وأن الناظر عرف اسمى اللذين ارتكبا هذه الفعلة المهببة بعد دقيقة واحدة من وصول وكيل الخواجا ، فقد تطوع كل الطلبة الذين استقبلونا بحماسة ، بالوشاية بنا عند أول استجواب !

واتلطعنا من جديد عند حجرة الناظر وأكلنا علقة ساخنة فى المساء ، وانطردنا أسبوعا آخر ، ولكننا لم نكف أبدا عن سرقة الخنازير ، كل الذى حدث أننا كنا نسرقها بعد الخروج من المدرسة لنركبها حتى البيت أو نركبها فى نزهة حتى شاطىء النهر !

ولقد كان هذا العام هو أسوأ عام دراسى فى حياتى . أوقعنى الله فى مخالب الشيخ طاهر مدرس اللغة العربية . وكان رجلا معمما شديد القسوة لا يتكلم إلا بالنحو ولا يتفاهم إلا بالعصا . وكنت بليدا فى القواعد شديد التفوق فى المطالعة والشعر والانشاء ! وكنت لا أعرف الفاعل من المفعول ولم تكن لدى الرغبة فى ذلك ! وكانت حصة القواعد تمر علينا كأنها دهر ، أجلس خلالها الى جانب غزالى نلعب « الجديد » فى حماس شديد !

وبينما كنت ألعب الجديد فى ابتهاج ظاهر ، هب الشيخ طاهر مصوبا عصاه الرفيعة نحو عينى وقال فى تؤدة وبصوت رخيم :

ـ أعرب جاء محمد يا ولد . . .

ونهضت مذعورا كأرنب ، ولكنه خلصنى من ذعرى وأمرنى بالجلوس ، فقد كانت مصوبة نحو غزالى ، وحمدت خفى الألطاف الذى نجانى مما أخاف ،

وجلست ووقف غزالى يشرح كأنه يعرف . ولكن بدا على وجه الشيخ الطاهر أن غزالى لم يعرف شيئا مثل حالى ، فأشار الشيخ بعصاه نحوى وقال بنفس الصوت والنغمة :

ـ أعرب يا ولد . . .

وأعربت على الفور ، ففى ساعة الذعر يبدو على وجهى ومسلكى أننى أشجع الشجعان . وكان إعرابى مصيبة كبرى جلبت على نفسى الكوارث والخراب ، محمد فاعل منصوب بالفتحة ، وجاء مفعول به مكسور على الضمة ، إعراب ما أنزل الله به من سلطان ، وإهانة ما بعدها إهانة وجهتها للسيد سيبويه ، وعلى وريثه الوحيد فى هذا العالم الشيخ طاهر أن ينتقم . وانتقم الشيخ الطاهر ولكن انتقامه كان رهيبا رمانى شهرا فى منزلى طريح الفراش ، وألقى بغزالى فى المستشفى إلى نهاية العام الدراسى . . .

وعندما عدت الى المدرسة بعد شهر كامل ، نجانى خفى الألطاف مما أخاف ، نجانى من الشيخ الطاهر ، ولكنه ألقى بى فى براثن الزمرانى أفندى ، وكان الزمرانى أفندى هو مدرس الحساب ، وكان سمينا ووجيها ، ولون جلده شديد الاحمرار ، وكان أعزب ماتت زوجته منذ خمسة عشر عاما فلم يتزوج ، سكيرا يشرب كثيرا ولكن فى حدود الاحترام . مقامر يلعب الطاولة فى مقهى نظيف بالجيزة . ويشترى كميات هائلة كل يوم من أوراق اليانصيب ! ولولا قسوته الشديدة على الأطفال لاستطاع أن يشق طريقه الى أعلى منصب ، فقد وصل الى منصب ناظر مدرسة ابتدائية .

وكان ناظر المدرسة الابتدائية فى عام ١٩٣٠ ولا حكمدار مصر فى هذه الايام . ثم ضرب تلميذا على وجهه فمات . فحاكموه اداريا وأعادوه مدرسا للحساب فى مدرسة الجيزة الابتدائية !

وكان إذا صفا بعض الوقت قضاه فى الحديث عن تلك الفترة القصيرة التى قضاها ناظرا . . وعن عظمته وخبرته فى فن الادارة ، ثم يهاجم بقسوة نظار هذه الايام الذين لا يعرفون كيف يملأون مناصبهم ، فيبدو المنصب عليهم وكأنه جلباب كان لغيرهم فيما مضى من الزمان ! وكان يتصيد الأخطاء للطلبة . وإذا ضرب تلميذا يتحول لحظتها الى وحش مجنون ، فاذا خرج من سور المدرسة عاد الصفاء إليه والهدوء ، وإذا جلس فى مكانه المعتاد فى المقهى بدا سعيدا للغاية يوزع نكاته على الجميع .

وعندما هبت نسائم الصيف ذلك العام اختفى الزمرانى أفندى ، أسبوعا ، وكدت أطير من الفرحة عندما علمت أنه مرض مرضا شديدا ، وأنه لا يقوى حتى على الكلام . وانتشرت فى أنحاء المدرسة كأننى وكالة أنباء أوزع أنباء مرض

الزمرانى أفندى وتطوراته على الطلبة كل صباح ، وتطورت بالمرض إلى نهايته ، فأعلنت ذات صباح أنه مات ! ولكنه لم يلبث أن ظهر من جديد أكثر شبابا عما كان .

وعلمنا بعد ذلك أنه ربح البريمو فى يانصيب الدبة وأنه كسب مائتى جنيه كاملة فأخذ إجازة أسبوعا قضاه على شاطىء البحر فى الاسكندرية ، وتأكد هذا النبأ عندما جاء الى المدرسة ذات صباح يحمل علب الملبس الى كل الفصول التى تقع فى دائرة نفوذه وتحت رحمة عصاه . .

ولقد كرهت الحساب من أجل الزمرانى ولا أزال ، ورغم أنى أحببت الزمرانى بعد ذلك وصادقته ، إلا أننى لم أتخل عن عداوتى لعلم الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات !

فلقد ظل الزمرانى على قيد الحياة حتى أصبحت رجلا ، وتصادقنا فى المقهى ولعبت معه القمار ! وكان يبادلنى الود والاحترام حتى علم أننى كنت تلميذا له يوما ما فاحتفظت بوده وفقدت الاحترام . ولقد مات الزمرانى فى المقهى وهو يلعب الطاولة ، ومات فجأة وحرب فلسطين على الأبواب ! ولقد شيع جنازته جمع غفير من الناس كان أكثرهم من تلاميذه ، وكان من بينهم أساتذة فى الجامعة وضباط عظام وأطباء ناجحون أحبوه جميعا فى حياته ، وبكوه طويلا عندما مات رغم الأذى الشديد الذى لحق بهم على يديه !

المهم أن غزالى عاد الى المدرسة فى نهاية العام ، ورغم المرض والغياب فقد استطاع أن ينجح ونجحت معه . . ولكن مشكلة عويصة واجهتنا فى اليوم الأخير من أيام المدرسة ، فقد نشأت علاقة بيننا وبين عم شحاته بائع الكشرى . . وكنا ندفع ونأكل فى أول الأمر ، وعندما تطورت شهيتنا وانفتحت كنا نأكل ونؤجل الدفع . فلما مضى العام كان علينا ريال أنا وغزالى ، وكان من الطبيعى أننا لن نقوى على دفع الريال إلى آخر الزمان !

ولكن عم شحاته الذى كان مثل مصطفى كامل باشا لا يعرف اليأس ، ظل يتعقب خطواتنا ويقتفى أثرنا إلى آخر يوم من أيام الدراسة . . وفى ذلك اليوم الأخير قرر أن يقبض علينا بأى ثمن ، وأن يأخذ حقه منا نقدا أو عينا ، فلقد كانت لدينا طرابيش وكتب وأحذية تساوى ريالا وربما أقل !.

وعندما خرجنا على باب المدرسة لمحت عم شحاته واقفا على الناصية يتحفز ويتلمظ كأنه قط ينتظر فأرا على وشك الخروج . وعندئذ أطلقت صيحة حرب عالية فهمها غزالى فأنطلق يجرى على الفور وأنا خلفه وعم شحاته خلفنا يعدو كأنه فيل عجوز !

وكان عم شحاته عجوزا فعلا وسمينا للغاية ويرتدى جلبابا وفى قدمه بلغة . .

وبعد أن قطعنا أكثر من كيلو متر ، شعرت بالاختناق ، وأحسست أنني سأسقط على الأرض ميتا بلا حراك . وتوالت دقات قلبي وارتفعت ، وتعثرت ساقاي والتفت ، وسقط طربوشي أكثر من مرة ، وتبعثرت كتبي في كل ناحية . وعندئذ قررت أن أتوقف مهما كانت النتائج .

وعندما اختلست النظر الى غزالي أدركت أنه أتخذ نفس القرار . وتوقفنا فعلا عن الجرى ، ووقفنا نلهث ونهتز كأننا عيدان قصب جافة دب فيها السوس ثم هبت عليها رياح الشتاء !

وعندما أصبح عم شحاته على مرمى حجر مني أطلقت صرخة رعب شديدة وبدأت أعوى كأنني كلب جربان وقع في شباك عسكرى جمعية الرفق بالحيوان !

(٤)

فلما وقع بصرى على الحقول والترع والقمر فى الليل تمنيت ألا أغادرها إلى أى مكان آخر ، وكان جدى يرتدى زى المشايخ ويشتغل بالتجارة ، ويشرب فى اليوم الواحد مائة فنجان قهوة ومائة سيجارة ويكح بلا انقطاع ، وكان الكحة هى الوظيفة الوحيدة التى يؤديها فى الحياة !

فى اللحظة التى قررت فيها أن أتوقف عن الجرى ، وأن أسلم عنقى إلى عم شحاته ، وأسلم أمرى إلى الله ، كان غزالى قد اتخذ نفس القرار وفى نفس اللحظة ، ووقف غزالى يلهث وهو ساكت ، وكنت على عكسه تماما صياحى للجو وصوتى طالع لرب السما ، وعقلى يفكر بسرعة النفاثة ، ولكن فى شىء مضحك للغاية .

كنت أفكر فى الأمكنة الأكثر تعرضا لركلات وصفعات عم شحاته ، وحددت مكانا بالذات وقررت أنه أخطر الأمكنة جميعا وقررت حمايته . وكان المكان الذى اخترته هو قلبى ، وبحركة لا شعورية وضعت كتبى فوق صدرى تتلقى لكمات عم شحاته ، فقد خشيت أن يضربنى على قلبى وأنا فى هذه الحالة من التعب الشديد فأسقط ميتا فى معركة كشرى !

وراح عم شحاته يزحف نحونا فى خطوات واسعة بادىء الأمر .. ثم فى خطوات قصيرة ، ثم فجأة ، وعم شحاته على بعد خطوات من عنقى .. توقف ويده على قلبه ورأسه ينخفض ويرتفع وفمه ينفتح وينغلق فى حركة آلية وهو يكح ويكح ويكح حتى ينقطع نفسه ، ثم يشهق فجأة ويبلغ نفسا عميقا ليعود من جديد إلى زوبعة الكحة التى اعتصرت قلبه ! ونظر عم شحاته نحونا فى غيظ بالغ وفى خبث أبلغ . وسقط مكانه على الأرض جالسا ونحن على بعد خطوات منه لا نستطيع أن نتحرك .. وقال عم شحاته وهو يلهث :

خد يا واد ما تخافش ..

وفى الحال بدأت أتحرك نحوه ، ولكن أوقفتنى صرخة من غزالى وردتنى الى مكانى القديم . ولم يكن عم شحاته يريدنى للفسحة أو المناقشة ولكنه كان يريدنى للضرب . ولم أكن أنا ساذجا إلى حد أن أذهب إليه . ومع ذلك ذهبت إليه ذلك لأننى كنت مذعورا للغاية ، فلما نادانى تقدمت نحوه على الفور ، ولم أدرك هول

المصير الذى كنت أنتظره إلا بعد أن صرخ غزالى من خلفى فأيقظنى من رعبى .. وردنى إلى صوابى وإلى مكانى القديم ..

وهذه الحالة الغريبة ستظل تلازمنى ربما الى آخر أيام العمر .. ففى ساعة الذعر أفقد ذكائى وحواسي جميعا .. وقد انساق إلى حتفى دون أن أدرى .. والاغرب من هذا أننى لا أفقد فى ساعة الذعر عقلى .. ففى ذات مرة وقعت فى ملقف ذعر أبدى أحال جسمى كله إلى كتلة من اللحم البارد .. ومع ذلك ظللت ألا حظ جميع الوجوه المذعورة معى لأتبين الذعر .. وأرقبه وأشبع من رؤياه !

ما علينا أيها الناس الطيبون .. فما أكثر مواقف الذعر التى نهشت قلبى ونشفت دمى وانطلقت بدقات قلبى الى سرعة المرسيدس !

وانتهى هذا المشهد مع عم شحاته نهاية مضحكة .. تناقش معنا فى البداية بعقل شديد .. ومش عيب تاكلوا فلوسى .. ومعلهش ياعم شحاته وحقك علينا .. طيب زىَ بعضو تعالوا ولا تخافوش .. ولكننا كنا خائفين فعلا .. فذهبنا ولكن فى الاتجاه الآخر . ونهض عم شحاته وسار خلفنا على بعد خطوات منا لا يستطيع أن يلحق بنا ولا نستطيع أن نجرى .. ولم ينقطع النقاش بيننا أثناء الطريق ، وفجأة بدت من جانبه حركة جرى فانطلقنا .. وكنا قد استرحنا تماما فانطلقنا حتى غبنا عن ناظريه والى أبد الآبدين !

مات عم شحاته فى العام التالى واحتلت ابنته مكانه تبيع الكشرى ولكن بالفلوس : وعدنا نحن الى المدرسةوقد تغيرنا كثيرا ، ازددت أنا هزالا واصفرارا ودوخة تعترينى فأحس معها كأننى أموت .. أصابتنى الكوارث كلها بعد رحلة صيف الى قريتى .. ولقد تركت هذه الزيارة الأولى لقريتى أثرها البالغ الابدى فى عقلى وفى بدنى .. فلم أكن قد سافرت إلى أى مكان من قبل ، فلما وقع بصرى على الحقول والترع والقمر فى الليل تمنيت ألا أغادرها إلى أى مكان آخر .

وكان جدى يرتدى زى المشايخ ويشتغل بالتجارة ، ويشرب فى اليوم الواحد مائة سيجارة ومائة فنجان قهوة ويكح بلا انقطاع وكأن الكحة هى الوظيفة التى يؤديها فى الحياة ! وعندما كانت الكحة تعقد معه صلحا لعدة دقائق كان يحكى خلالها بلاانقطاع حكايات قصيرة ، وكانت حكاياته تتضمنها نكت كثيرة ، وكان يضحك لكل نكتة يرويها .. فاذا أمعن فى الضحك .. هجمت عليه نوبة الكحة فيظل يكح حتى ينام ..

وكان يستيقظ فى الفجر يرتل أشياء لا أفهمها ولكن أستعذبها ويظل يرتل حتى يكبسنى النوم فأنام .. وذات مساء حكى لنا قصة أثارت خيالى .. قصة عفريت التقى به فى الطريق ليلا وهو عائد الى داره .. وصافحه العفريت فى وقار ، ثم

سحبه من يده الى الترعة ، وعندما أصبحا معا عند الشاطىء دفعه بيده الى القاع ، ولكنه تشبث بفرع شجرة وقرأ آية الكرسى فاشتعلت النار فى العفريت ومات !

وفى تلك الليلة لم أنم أبدا . . ظللت أرقب السماء من النافذة المفتوحة حتى ظهر نور الفجر فاستسلمت للنعاس ، وعندما شكوت لجدتى عدم استطاعتى النوم فى الظلام أشعلت لى لمبة جاز « ساروخ » ظلت تنفث دخانا وهبابا حتى الصباح . . ورغم ذلك لم أنم . . فقد خشيت ان تنقلب اللمبة على جنبها فتحرق الدار وتحرقنى ! ولم أنم بعد ذلك إلا فى حضن ستى . . وكانت تغنى قبل أن تنام وكأنها تبكى ، فاذا طار الكروان فى الليل وغنى غناءه الذى يشبه الصلاة كفت عن الغناء ورفعت رأسها إلى أعلى . . وأصغت فى شغف ولذة !

ولقد تعلقت بى المرأة العجوز وأحبتنى الى درجة العبادة . . فلم يكن يعيش معها أحد من أبنائها . . ابنها الاصغر فى مصر يتعلم وابنها الأوسط مدرس فى الجيزة وابنها الاكبر يشتغل فى البحر يطوف بلاد الله لخلق الله ولاتدرى مكانه . . ولهذا السبب كانت تحبسنى فى قاعة مظلمة حتى لا استحم فى الرّياح . .

ولكى ترضى هوايتى فى الشقاوة كانت تسحبنى معها الى ترعة ناشفة فيها من الطين أكثر مما فيها من الماء . . وكانت تجلس على حرف الترعة ثم تطلقنى إلى الماء وقد ربطتنى بحبل كأننى عجل جاموس رضيع . . وكنت أقضى النهار بطوله أبلبط فى الطين وطرف الحبل مربوط فى يدها حتى لا أفلت منها فأغوص فى الطين أو أغرق فى مياه الترعة .

وعندما عدت مع الخريف الى الجيزة كانت البلهارسيا قد تمكنت منى وامتصتنى ولم تنفع معى دعوات امى ، ولم تشفع لى عشة فراخها التى ذبحتها من أجلى ! وطردتنى البلهارسيا من ملاعب الكورة وكنت على وشك ان أصبح نجما . . فقد كنت حريفا أستطيع أن أغزل خمسة خصوم فى لحظة وبحركات بهلوانية مضحكة تغيظ الخصم فتربكه . . ولكن نفسى الذى انقطع بفعل البلهارسيا أرغمنى على أن أعتزل قبل أن أبدأ . . ولكن بقى أمامى بعبع رهيب هو حصة الألعاب الرياضية !

ولقد كنت أكره حصة الحساب ، ولكن حصة الألعاب أكرهها أكثر . . كنت أضطر الى خلع ملابسى فى عز الشتاء لاسير شمال يمين ويمين شمال . . أو أرفع يدى وأركع على ركبتى كأننى قرد يصنع عجين الفلاحة . . ولم يدرك مدرس الألعاب الذكى أننى مريض . . ومرضى يمنعنى من اللعب . . فأصر على أن ألعب . . وأصر على أن يضربنى . . وانتهى الأمر إلى طردى من طابور

الألعاب . . وأصبحت حصة الالعاب تمر كلما حل موعدها وأنا مربوط على شجرة .

وذات يوم جاء رجل الى المدرسة ، فى صوته خشونة ، ومن أنفه يطل شعر غزير ، ورائحة ملابسه سجاير ، وطاف الرجل الغريب بكل الفصول يختار من بين تلاميذها أفرادا ، وتوقف عندى وأشار نحوى فتبعته . كان الرجل ممثلا شهيرا اسمه عباس فارس .

وكان شابا لا يزال وكان مدربا للتمثيل فى وزارة المعارف ، وهؤلاء التلاميذ الذين اختارهم كانوا أول فرقة للتمثيل فى مدرسة الجيزة ، وجاء من نصيبى دور محام ضليع يترافع بالشعر عن متهم مظلوم ، ثم تتبين المحكمة براءته فتحكم له بالبراءة . . ولازلت أذكر منظر وكيل النيابة هو يترافع بصوته المسلوخ مطالبا بعنق المتهم ، وقد علق على صدره وشاحا ورسم بالقلم الفحم على وجهه شنبا وكان يرتدى روب النيابة الفاخر ، فلما اندمج فى الدور بشدة وراح يشوح بيده يمينا ويسارا مسح فردة من شنبه وبقيت فردة ، وضج أولياء الامور بالضحك بينما كان يترافع مرافعة بليغة .

ولم يكن عباس فارس هو بصيص النور الوحيد الذى دخل حياتى تلك السنة . فقد كان مقررا علينا رواية اسمها الصياد التائه ، قصة ولد خرج الى الصحراء فضل طريقه ، وتعقبه أسد انقض عليه ، ثم عثر على كنز كبير وكاد يموت جوعا لولا أعرابية جميلة عثرت عليه ملقى فى العراء وهو يلفظ أنفاسه ، وجاءت به الى حافة الصحراء وردته إلى اهله .

واحببت الصحراء بعد أن قرأت القصة ، وتمنيت على الله أن أقطع الصحراء ذات يوم فأتوه فيها فأجد كنزا وألقى أعرابية صبية حلوة ، فلا تردنى إلى أهلى ولا أردها إلى أحد ، ونبقى معا نقطع الصحراء فى قافلة يتقدمها رجل ملثم ينفخ فى ناى حزين الحانه الجميلة !

وذات مساء قدر لى أن أقوم بأول وظيفة لى فى الحياة كرجل ، كان معنا زميل اسمه حسن ولم يكن على صلة وثيقة بنا ، وتغيب ذات صباح عن المدرسة وقيل لنا ان أباه قد مات . . وجاءنى عبدالسلام الذى كان حريصا على أن يجامل الناس وسحبنى معه الى مأتم الرجل الذى لم نره قط ، وكان علينا أن نتصنع الحزن والوقار وأن نكبس طرابيشنا على رءوسنا وأن نجلس صامتين فى الصوان نهز رءوسنا كلما قرأ القارىء بصوته القبيح آية من آيات الله .

ونجحت والحمد لله فى تصنع الحزن الشديد ، ولكنى لم أكن أعرف حرفا مما يجب أن يقال فى هذه المناسبات ، فصافحت الواقفين على باب الصوان وتمتمت بكلمات غير مفهومة وجلست الى جوار شيخ معمم وجلس عبدالسلام الى جوارى . وجاء رجل يحمل اقداح القهوة . . فخطف الشيخ المعمم قدحا وفعلت مثله ، فلما وصل الى عبدالسلام رده شاكرا . ولم يتناول من فوق الصينية قدحا !

وشفطت القهوة على كره منى ، فقد كانت شايطة وسادة وعلى وجهها تسبح قاذورات . ولم أكد انتهى . منها حتى جاء الرجل مرة اخرى فخطف الشيخ قدحا وخطفت قدحا أنا الاخر ، ورفض عبدالسلام مرة اخرى أن يأخذ من الرجل شيئا !

وتكررت العملية اكثر من عشرين مرة ، كلما جاء الرجل يحمل اقداح القهوة خطف الشيخ المعمم قدحا وخطفت أنا الآخر قدحا ، عبدالسلام مصر على الرفض . وكنت أشفط القهوة بحرقة وبصوت مسموع حتى يسمعنى الجميع ، وكان اعتقادى ان شرب القهوة هو مظهر الحزن الوحيد فى هذا المجال . ولذلك ساءنى موقف عبدالسلام جدا ، فملت على أذنه وأنبته لعدم قبوله اقداح القهوة ، على الاقل لنظهر أمام زميلنا حسن بمظهر الحزانى على فقد والده العزيز ! وهمس عبدالمنعم فى أذنى وبهدوء شديد :

ـ دا شرب القهوة فى الميتم عيب .

وأبديت له احتقارى لرأيه ، فلو كان شرب القهوة عيبا لما شفط الشيخ المعمم المجرب الذى يجلس الى جوارى أكثر من عشرين قدحا من القهوة فى ساعة واحدة . وقال عبدالسلام بنفس الصوت الخافت .

ـ دا مش شيخ . . داتربى .

ورنت كلمة تربى فى أذنى رنينا غريبا ، وألقيت نظرة على كل الناس فلم أجد احدا منهم يشرب شيئا ، وليس فى الصوان كله من يحمل فناجين قهوة الا أنا والتربى ! وانفجرت ضاحكا رغما عنى ، واهتز فنجان القهوة فى يد وانسكب على الشيخ المعمم ، وعندما نهض صائحا ، الله اكبر ، أغرقت فى الضحك أكثر ، وعندما انطلقت الهمسات والشخطات تنهرنى وتأمرنى بالسكوت . . كان الضحك عندى قد انقلب الى حمى تملكتنى ، وعندما امتدت الايدى نحوى

تضربنى كانت ضحكاتى تفرقع فى الصوان كله ، والقارىء يتوقف احتجاجا ، فلما اشتد الضرب فوق رأسى انطلقت اجرى من الصوان ، وصاح عبدالسلام يسبى ، فقد امتدت الايدى نحوه هو الاخر فانفجر يضحك ، ثم انطلق يجرى خلفى والصوان كله يجرى خلفه ، ومن يومها لم ندخل صوانا معا الا نضحك ، ولانرى جنازة فى الطريق إلا ونضحك ، تكفى لحظتها نظرة منى نحوه ، أو نظرة منه نحوى حتى ننفجر ضاحكين وبلا مناسبة !

ومر العام ونجحنا ، وفى آخر نهار فى المدرسة وقف الناظر فى الحوش ونادانى مرتين ، مرة لأتسلم جائزة التمثيل ، ومرة لاتسلم جائزة الدين ، التمثيل والدين وعلى مابينهما من تعارض ، ولكن هذه الجائزة الغريبة كانت تترجم عن حقيقة أعماقى ، ففى داخل أعماقى ستعثر حتما على شخصين لكل منهما مزاج وهواية وعقيدة وسلوك معين فى الحياة . . شخصان مختلفان تمام الاختلاف ، يتكلمان أحيانا ، ويتخاصمان أحيانا ولا يتفقان على الاطلاق ، أحدهما نال جائزة التمثيل ، والآخر نال جائزة الدين ، والاثنان لهما اسم واحد !

(٥)

وفى هذا العام عجز أبى عن دفع القسط الأخير من مصاريف الدراسة فطردونى . ولم يكن فى الوجود من هو أسعد منى عندما قذف بى عم محمود الى خارج اسوار المدرسة ، وتمنيت على الله أن يظل أبى عاجزا عن دفع المصاريف ، أو يصيبنى الله بكارثة تمنعنى من دخول المدرسة . ولكن أبى لسوء الحظ دفع المصاريف بعد أيام . . ولم يصبنى الله بكارثة فعدت حزينا كأننى أسير عكمه الأعداء بعد أن انطلق هاربا الى دنيا الحرية .

من الولد الشقى يموت ولا يتعلم ، ويدخل اللومان ولايدخل المدرسة ، آه ويتعامل مع السجان ولايتعامل مع الزمرانى افندى . ليس فى العلوم كلها مايسر إلا القصص والشعر والتاريخ ، كل القصص . أى نعم ، ولكن ليس كل الشعر ولا كل التاريخ ، كل شعر المدارس سيىء ورهيب يحرضك على الانتحار ، وتاريخ الفراعنة مكتوب بطريقة تدعوك وترجوك ألا تفهمه ، حتى الأسامى منفرة ومؤذية ، مفتاح ومنفتاح وأمنحتب . . لم يبق إذن إلا القصص .

والقصص تنقلنى إلى جو بديع ، جو أشبه بالاحلام وبالانغام !

بيتنا كئيب جدرانه كالحة ، منظره مش ولابد . . وحارتنا مظلمة وموحلة وضيقة كأنها شق الثعبان ، وأكلنا سيىء ولبسنا أسوأ وكل شىء وأى شىء حولى ليس على مايرام .

ونهشت القصص نهشا . وقرقشت أوراقها قرقشة ، واستحلبت احداثها فى بهجة وفى لذة ولكنى لم أشعر قط نحوها بالتخمة .

أعظم الروايات هى رواية أطفال الغابة الجديدة . . رواية مكتوبة باللغة الانجليزية أول سطر فيها يقول « الشعب الانجليزى هب فى عام كذا فثار وحارب الملك ! » . . ولكن الرواية تقف مع الملك بعد ذلك وتؤيده وتقف الى جوار انصاره وتعطف عليهم عطفا بالغا .

وكانت القصة جميلة ورقيقة ومكتوبة برشاقة . قصة أبناء احد فرسان الملك . قتل أبوهم فى المعركة . . فأخذهم العم جاكوب العجوز خدام الفارس وفر بهم الى الغابة الجديدة ، وفى الغابة الجديدة أطيار وفواكه اللهم صلى على أكرم نبى .

وخارج الغابة الحرب تدور بين أنصار الملك والشعب ، وتنتهى طبعا بانتصار

الملك وعودة أطفال الغابة الى قصرهم فى لندن . . ولكن جاكوب العجوز لايعود معهم ، لقد مات فرحا . هزة نبأ انتصار الملك على الشعب .

وقرأت القصة عشر مرات وفى كل الحصص . . وأهملت الحساب والرسم والجغرافيا . . واسقطتهم من الاعتبار . لم يعد فى حياتى الا أطفال الغابة الجديدة وعم جاكوب وانتصار الملك على الشعب .

وكانت أمى تتردد كثيرا على المكان الذى استذكر فيه لتقوم بعمليات تفتيش مفاجئة . . وكانت إذا ضبطتنى بلا مذاكرة سحبت شبشبها وانهالت به على رأسى .

ولكن منذ أن أحببت الغابة الجديدة واطفالها استقر شبشب امى فى قدمها فلم تعد فى حاجة الى سحبه على رأسى الاقرع الصغير .

فكلما هجمت على وكرى فى حملة تفتيش سريعة ضبطتنى وأنا أقرأ فى الرواية ، وكانت عندئذ تتوقف عند الباب وتقرأ الفاتحة وتهتف باسم الله الذى هدانى الى المذاكرة وحمانى من عيون الناس .

ولم تنقذنى عشرات القصص التى قرأتها بعد ذلك من براثن الغابة وأطفالها الجديدة ، فظلت تلح على نفسى حتى تمنيت على الله أن أعيش فى غابة . ولقد تحققت أمنيتى بعد ذلك بشهور . . فعلى مقربة من بيتنا كانت تترامى جنينة كثيفة الشجر اسمها جنينة عبد البر . وكانت المياه تغمرها طول العام والناموس يغطيها كأنه مظلة تحميها من شمس الصيف وامطار الشتاء .

وعندما دخلت الحديقة تخيلت نفسى من أطفال الغابة الجديدة ، وبين شجرتين عجوزتين من شجر الجوافة ، صنعت لنفسى كوخا كنت أقضى فيه أسعد اوقاتى على الاطلاق واندمجت فى الدور أكثر . . فكنت أقطع الوقت فى الحديث مع عم جاكوب ، كنت أطلب منه أحيانا أن أرى بابا ، تماما كما قرأت فى قصة الغابة الجديدة ، وكنت أحيانا أرتمى على الحشيش الاخضر داخل الكوخ أبكى وأتشنج بكاء مزيفا ونشيجا مصنوعا على طريقة ممثلى السينما ، وأظل أدعك فى عينى حتى تحمر تماما وتصبح فى لون الدم .

وذات يوم عبقت الجنينة برائحة الجوافة . . فقد طرحت الأشجار فجأة وتدلت الثمار من الفروع واختفى الناموس قليلا ، وانزاح الماء مخلفا طينا لزجا تغوص فيه الاقدام .

وكانت ثمار الجوافة مغرية فأقدمت على عمل لم أكن قد قرأته فى الرواية ، تشعبطت على شجرة وجمعت أكثر من أقة ونزلت الى الكوخ ومسحت الجوافة بجلبابى وجلست ألتهم حباتها فى لذة ولا لذة الذى يسكر ويسكى .

وصنعت الجوافة الشيء الذى لم تستطع الروايات ان تصنعه ، أنستنى أطفال الغابة الجديدة وعم جاكوب ، وتبهدلت الرواية بين أصابعى ، واصفرت أوراقها وتمزقت ، ثم قذفت بها بعد ذلك الى الطين ودست عليها بالاقدام ، واستخدمت بعض صفحاتها فى تنظيف حبات الجوافة ، وتحولت احلامى فى الغابة الجديدة الى غابة جوافة . . ونسيت ثورة الشعب الانجليزى على الملك ، فليس فى جنينة عبدالبر ثورات .

ولكن الثورة لم تلبث ان هبت على الجنينة فحرمتنى من الجنة وطردتنى الى خارجها عريانا بلبوصا بلا جلباب . . ذلك أننى فى عملية شعبطة على الشجرة ذات يوم أصابتنى جروح ونزفت منى دماء وتكسرت منى أسنان ، فاكتفيت بعد ذلك بقذف الشجرة بالطوب ، وكان للطوب دوى ولا دوى القنابل . فجذب نحو كوخى عشرات الحراس وعشرات الصياع وعكمونى وربطونى على شجرة وهات ياضرب أزلى حتى كدت أموت .

وعندما حل المساء قذفوا بى خارج الجنينة وقد استولوا على جلبابى وقبقابى وكنز الجوافة الذى كنت قد حصلت عليه .

ولم أدخل بعد ذلك الى جنينة عبد البر قط ، وعدت الى المدرسة حزينا مهموما أتمنى لو تأتى شوطة فتقتل الناظر ومعه جميع المدرسين ، أو تنهد المدرسة علينا جميعا فتقتلهم وتقتلنا وكان الله يحب المحسنين !

وكنت إذا سمعت وانا فى المدرسة نداء بياع خيار يطوف حول المدرسة وهو يغنى تمنيت على الله ان يخلصنى من عذاب المدرسة وأصبح بياع خيار عظيم مثل الرجل الذى يغنى طليقا فى الخارج . .

وعندما كان الفراش يعكمنى من جاكتتى ويسحبنى الى حجرة الناظر كنت أتمنى لحظتها لو كنت فراشا مثل عم محمود ، أعكم التلاميذ مثله وأسحبهم الى حجرة الناظر !

ولقد كنت أنظر بحسد وحقد شديد الى صبى بياع الكشرى عندما يرن جرس المدرسة كل صباح يدعونا للدخول . وكنت أعجب بحكمة الله التى جعلت منى تلميذا ومن هذا الصبى بياع كشرى . ولا أدرى لماذا لم أحلم قط بأن أكون مدرسا او ناظرا او حتى صاحب دكان كشرى فخيم . وكانت أحلامى متواضعة ، فراش ، بياع خضار ، صبى كشرى ، حتى الاحلام حقيرة وصغيرة كأنها هى الاخرى حظوظ وزعت بين الناس .

وفى هذا العام عجز أبى عن دفع القسط الاخير من مصاريف المدرسة فطردونى . ولم يكن فى الوجود من هو أسعد منى عندما قذف بى عم محمود الى خارج أسوار المدرسة ، وتمنيت على الله أن يظل أبى عاجزا عن دفع المصاريف ، أو يصيبنى بكارثة تمنعنى من دخول المدرسة . ولكن أبى لسوء الحظ دفع المصاريف بعد أيام . ولم يصبنى الله بكارثة فعدت حزينا كأننى أسير عكمه الاعداء بعد ان انطلق هاربا الى دنيا الحرية .

وعندما أوشك العام على الانتهاء كانت الصلة قد توطدت بينى وبين بائع السمين الذى يقف وسط الميدان على مرمى حجر من المدرسة ! وكما يحدث الحب فى روايات السينما من أول نظرة ، حدث الحب بينى وبين بائع السمين من أول أكله . . مددت يدى للرجل بائع السمين بقرش صاغ واحد ، فمد يده نحوى برغيف كامل فيه رطل لحمة على الاقل .

ولكن هذا الشىء الذى اسمه السمين لم يكن لحمة . له طعم اللحمة ورائحة اللحمة ولكنه ليس لحمة على الاطلاق ، مجرد شغت وبلاوى كقطعة الملابس المهلهلة . والفقراء منكم أيها القراء سيعرفون حتما ما هو السمين . . ولكن القراء الاخرين لابد من شرح الامر لهم حتى يكونوا على علم به . فأنا آكل لحوم ممتاز ، كنت أتمنى منذ خمسين عاما ان أعثر على كنز فيه كميات هائلة من اللحمة المحمرة وكنت طماعا فأتوسل الى الله ان يجعل الى جانب اللحم برميل طرشى بلدى معتبرا .

ولقد استجاب الله دعائى فعثرت على بائع السمين ، وأصبح مصروفى كله مخصصا لبائع السمين ، ولما لم يستطع مصروفى أن يسد احتياجاتى من السمين ، تقدمت بكتبى حتى نفدت ، فعقدت معاهدة مع تاجر السمين شبيهة بتلك المعاهدة التى عقدتها مع عم شحاته بائع الكشرى . . ولكن هذا السمين اللعين أصابنى بمرض قاتل فى مصارينى لازمنى حتى الان . . ولو أننى داومت على السمين شهرا آخر فمن يدرى؟ ربما كنت الان طريح القبر فى قرافة الغفير ! فقد حدث حادث فى بداية الصيف جعلنى أفقد صداقة عم رضوان بائع السمين والى الان .

طردنى الناظر من المدرسة وأمرنى بعدم العودة الا ومعى ولى الامر .

وخفت أن أعود وحدى فيضربنى امام التلاميذة ويجعل فضيحتى للجو .

وعندما شكوت همى لعم رضوان تطوع بالذهاب معى إلى حضرة الناظر وبالقيام بدور ولى الامر . .

وفعلا سحبنى عم رضوان فى صباح اليوم التالى ودخلنا معا الى حجرة الناظر . ونظر حضرة الناظر الى عم رضوان من فوق لتحت ومن تحت لفوق

وراح يتفرس فيه كأنه نملة يسعى على حرف مكتبه ، وقال الناظر بعد عملية استعراض لهيئته استغرقت وقتا طويلا :

ـ أنت أبوه ؟

ولم يرد عم رضوان على السؤال ولكنه راح يتوسل لحضرة الناظر ويطلب من الله ان يبقيه وأن يمد فى أجله وأن يجعله من السعداء المنصورين ، وراح يكرر فيها وينغمها وكأنه شحات يتسول على الابواب وليس وليا لأمر تلميذ يدفع له كل عام ستة جنيهات تساوى الآن الشيء الكثير !

وأغرى ضعف عم رضوان حضرة الناظر فشتمه وسبه وأهانه إهانة بالغة ، ثم طلب منه فى عنجهية بالغة أن يلطعنى قلما على قفاى ، وعلى الفور امتدت كف عم رضوان الغليظة فلزقتنى لزقا شديدا وألقت بى على الارض . وكان اللزق شديدا ورهيبا فنسيت نفسى ، وقمت أسب الدين والدنيا وأضرب عم رضوان بالشلوت وبالأقلام . واكتشف الناظر اللعبة على الفور ، فسحبنى مع عم رضوان الى الحوش وجمع التلاميذ ثم طرحنى ارضا ورزعنى علقة كدت أموت فيها الى رحمة الله .

ولكن خلال العلقة الرهيبة ظللت أضحك وأضحك حتى كدت أموت فعلا من الضحك ، ففى نفس اللحظة التى كانت العصا تمزق فيها قدمى ، كان عم رضوان مطروحا على الارض هو الاخر ورجله الى أعلى وصوته المبحوح يرن فى حوش المدرسة وكأنه عروسة فلاحة فى ليلة زفاف أسود من الكحل !

(٦)

ثم تطورت المسائل بعد ذلك ، فأصبحت الحرب التى كنا نسمع عنها حقيقة واقعة ، فقد انتشر عمال البلدية ذات صباح فى الشوارع ودهنوا مصابيح النور بلون أزرق كالح .. وأصبحت شوارع الجيزة سوداء .. أشد سوادا من قلب الكافر .

الحر وعشقته ، وأول بلد تمنيت على الله أن أزورها هى الهند ،
أحببت أحببت الهند من كتب الجغرافيا ، أحببت غاباتها وأنهارها وأبقارها
المقدسة . وكرهت الشتاء كره العمى وكرهت معه البلاد الباردة ،
كان الشتاء كارثة عظمى للولد الشقى ، النهار قصير لا يسمح بلعب الكورة ،
والليل طويل بارد ومظلم وممطر ، وحارتنا فى الشتاء تتحول الى بركة ، وفى هذه
البركة كنت أغمس سنارتى طول النهار وكأننى اصطاد ، وكنت أشد السنارة
أحيانا وأقوم بنفس حركات الصياد وهو يتناول السمكة ، وكنت أحيانا أشعل
نارا فى حزمة ورق وأشوى عليها سمكا وهميا ، ثم أجلس بعد ذلك التهم
السمك الذى لم يكن له وجود قط برغيف عيش مفقع ، ثم أحمد الله واقبل يدى
ظهرا وبطنا وكأننى صياد حقيقى غلبان وكفران يعيش على شاطىء النهر .

ولكم أحببت الجغرافيا وهى تتحدث عن صفات الناس ، وعن الغابات والوديان والانهار ، ولكن كرهت الجغرافيا حين تتحدث عن الوديان وكم هى عميقة ، وعن الهضاب وكيف هى مرتفعة ، عن اقليم التندورا وغلاته ، واقليم السفانا وأنواع الحشائش التى تنبت فيه . وكنت اتحسر على هذه الوقت الضائع الذى نقضيه فى حفظ أشياء لن نكون فى حاجة اليها بعد ذلك يوما ما . وكان مدرس الجغرافيا سمينا كالعجل ، أصلع كأن رأسه شطفت بمحراث ، أعمش لايكاد يرى أبعد من خطوتين ، وكان شديد الاهتمام بالتفاصيل ، شديد الاهمال للموضوع ذاته . وكان كريها لم يعرف امرأة قط ولم تعرفه امرأة على الاطلاق ، لذلك ظل أعزب لم يتزوج ، وحين تقدم به العمر لم يكن يبدى إهتماما على أى نحو بمظهره كرجل ، ولكنه كان شديد الحرص ، يدخن السيجارة على مرتين ،

ويسعى على قدميه من بيته الى المدرسة ، وكانت كل إهتماماته فى الحياة تتركز فى بيت يملكه فى مصر القديمة ، ويسعى بجد شديد ليقيم فوق طوابقه الثلاثة طابقا رابعا جديدا .

وذات حصة ضبطنى أضحك ضحكة عميقة فأقسم اننى حشاش وطردنى شر طردة ، وخرجت من المدرسة مطرودا الى أرض ماتوسيان ، وكانت أرض ماتوسيان قطعة ارض خلاء على الجانب الايسر من نفق الهرم ، وكان يتخللها مستنقعات وتنمو بها أعشاب طويلة كأنها اقليم السفانا ، وتسعى فى جنباتها حشرات وزواحف من كل لون . . ورغم ذلك استطاع بعض الصبية ان يقيموا فى وسطها ملعبا للكرة ، وخططوا الملعب بالجير ، ونصبوا اهدافا من خشب الصناديق ، وسرعان ماتكونت فرق ، ولمع منها لعيبة طافت شهرتهم بالجيزة كلها .

وأصبحت أرض ماتوسيان أشهر من الاستاد هذه الايام . وفى أى وقت بالليل او بالنهار تذهب فيه الى ارض ماتوسيان ستجد حتما من تلاعبه الكرة ، قد لا تكون هناك كرة ولكنك ستجد على الدوام لعيبة فى الانتظار وفى الامكان ان تلعب معهم بطوبة او كوز صفيح او برتقالة ، قديمة ومتعفنة ، ولكنك ستلعب على أية حال .

وكان رزة من أبرز الذين اشتهروا فى أرض ماتوسيان ، كان عاملا فى شركة ماتوسيان ثم فصلوه لسبب لا أدريه ، فخرج من الشركة الى ارض ماتوسيان وخلع ملابسه وكون فرقة الوحوش المفترسة وراح يلاعب بها «الفرق» الاخرى وعلى رهان ، ولم يكن الرهان يزيد عن دستة كازوزة أو بشلن برتقال وأحيانا علبة سجاير .

ويرع رزة فى اللعب فراح يقدم عرضا منفردا ، فيلعب بالكرة خمسين مرة بقدمه دون ان تسقط على الارض ، ثم تطورت المسألة أكثر . . فراح يلعب بطوبة وعلى رهان ، ولم يكن الرهان يزيد على سيجارة واحيانا قرش صاغ . وفى سبيل السيجارة كان رزة ينطط الطوبة خمسين مرة على قدمه العارية حتى تدمى ، وحين كان يندمج فى اللعبة المهيبة كان يبدو مهموما ومشغولا وكأنه طيار .

ولمع فى أرض ماتوسيان رجل آخر اسمه غريب ، وكان غريب فى الخمسين من عمره أشيب الشعر يرتدى جلبابا وبالطو أصفر قديما ، وفى قدميه صندل مقطوع على الدوام . وكان غريب حارسا على مزلقان ثم نام ففات القطار على عربة كارو ، ومات العربجى والحمار ودخل غريب السجن ، ومن السجن خرج الى الشارع ، ومن الشارع الى ارض ماتوسيان ! ووقف فى أرض ماتوسيان يقطع

وقته الطويل الفارغ ويتفرج . فلم تكن سنة تسمح له باللعب . . ولم يكن مركزه كغفير مزلقان سابق يسمح له حتى بالحديث مع العيال الذين يلعبون فى أرض ماتوسيان . .

ولكن عم غريب اشترك بعد ذلك فى اللعب رغم أنفه ، لان الكرة فى ارض ماتوسيان كانت كالقمار بالفلوس . ولأنها بالفلوس . . فقد كانت المعارك تنشب فور انتهاء المباراة ، ويتحول اللعيبة الى بوكسيرة ومصارعين ، وتتحول أرض ماتوسيان الى ساحة قتال ، وتتحطم اخشاب المرمى على رؤوس الكباتن . . وتهدأ الحركة أياما فى أرض ماتوسيان لأن الاسعاف نقلت بعض اللعيبة وتولى البوليس نقل الباقين الى التخشيبة !

ولم تكن خناقات أرض ماتوسيان تقوم إلا لسبب واحد هو ان الحكم كان غشاشا فى نظر الفريق المغلوب ، ثم ولأن المعارك أصبحت كالرز ، ولأن المصابين والمسجونين أصبحوا على قفا من يشيل . فقد رأت الفرق المتنافسة ان تعقد اتفاقا وديا ، خلاصته أن يقوم عم غريب بمهمة التحكيم .

وهكذا نزل عم غريب الى اللعب وفى يده صفارة ، وكان يتقاضى لقاء ذلك من الفريق الفائز قرشا اذا كان اللعب على فلوس ، أو سيجارتين اذا كان اللعب على سجاير ، واندمج عم غريب فى مهنته الغريبة اندماجا تاما ، يبدو شديد الحزم أثناء اللعب ، ويبدو بعد اللعب منطويا على نفسة يتكلم مع اللعيبة

بحساب ويستخدم الاشارة فى أغلب الاحيان بدل الكلام . وكان عم غريب يرفض التحكيم فى مباراة على غير رهان ، فاذا توسلوا إليه ، وقف على خط التماس ومعه الصفارة يحكم بلا مبالاة .

وعندما ذهبت الى أرض ماتوسيان كنت أحسن حارس مرمى فى الجيزة كلها ، لذلك خطبت الفرق كلها ودى ، ثم انضممت فى النهاية الى فريق الاسهم النارية ، وكانت تنشب بيننا معارك رهيبة فى الكورة ، وفى الخناق مع فريق البحر الاعظم ، فقد كان فى فريق البحر الاعظم ولد شيطان يلعب الكرة كما يلعب الحاوى بالبيضة . ولد شيطان أصبح فيما بعد شهيرا ولاعبا دوليا ثم اعتزل الكرة وهو لايزال فى شرخ الشباب . الولد الساحر إياه كان اسمه فؤاد صدقى ولا يزال !

ثمة فريق آخر كانت الحرب بيننا وبينه سجال ، فريق نسيت اسمه الان وكان يضم صفوة أبناء الذوات فى الجيزة ، وفى الفريق ولد سفروت ، طويل نحيف يلعب الكرة برشاقة الموسيقار ، ولقد أصبح هو الاخر شهيرا ولاعبا دوليا ثم اعتزل بعد ذلك وهو لم يزل شابا فى عمر الوردة ، وتولى الاشراف على الكرة فى النادى الاهلى ، الولد السفروت إياه كان اسمه محب يوسف ولايزال !

وكان فريقنا يضم عددا من امهر اللعيبة وعددا آخر من الضبيشة يلعبون الكرة بطريقة حلق يا جدع أنت وهو . . ومن هؤلاء المهرة غزالى عبدالسلام وسعد كرنك وسيد بكر شقيق على بكر حارس المرمى الشهير . . اما حضرات الضبيشة فقد كان على رأسهم ولد طويل عريض يرتدى فانلة تشبه فانلة عسكرى

المطافى وبنطلون اصفر قصير ، وجزمة حدادى تكفى لكسر اى قصبة رجل تنهال عليها ولو من بعيد . . ولمع هذا الولد واشتهر بعد ذلك ، ليس فى الكورة طبعا ، ولكن فى الرسم ، الولد اياه اسمه احمد ، واشتهر بعد ذلك فى عالم الرسم باسم اخر ، طوغان !

وكان طوغان مصيبة حدفها الله على حتتنا وعلى فريق الاسهم النارية . . فقد كان أبوه ضابط بوليس كبير وفد على الجيزة ذات يوم من عام ١٩٣٨ وسكن على رأس حارتنا وفى بيت واحد مع عبدالسلام ، وكان قد طاف بعدة مدن شمالا وجنوبا مع والده قبل ان يستقر فى الجيزة . . وكان قد رأى أشياء لم نرها ، وعرف أشياء لم نعرفها ، ومارس الحياة . . ولكن كابن ضابط بوليس قليل الاختلاط شديد الزهو ساذجا على نحو ما . .

وسرعان ماتوثقت الصلة بيننا وبينه . . وأصبح طوغان باك لفريق الاسهم النارية . . مهمته الحقيقية ليست شوط الكرة ولكن شوط الاقدام . . ولأنه طويل فقد كان يشوط الرؤوس ، وكانت كل الفرق تشترط علينا ان نخلعه من الفريق إذا أردنا ان نلاعبها . . وكنا نزداد تمسكا بطوغان وكأنه بوشكاش العصر والاوان .

وفى هذا العام نجحنا جميعا الا عبدالسلام . وبدلا من ان يكافئنى الشيخ مرسى مدرس العربى ، وهو غير الشيخ الطاهر ، ضربنى علقة ساخنة فى نهاية

العام . . والسبب : الجوافة ! . . فقد جاء سؤال فى اللغة العربية يقول : ما هى أحب الفواكة اليك . . وبصراحة وبوضوح وبدون نفاق وبدون خجل اجبت : الجوافة . . ولكن الشيخ مرسى المعتوة شطب على الجوافة ، وكتب بدلا منها التفاح . . وأنقصنى ـ ثلاث درجات وضربنى علقة ساخنة لانني قلت الجوافة ولم أكن أنا حتى هذه اللحظة قد ذقت التفاح الا مرة أو مرتين ، وربما كان الشيخ مرسى مثلى تماما ، ولكن مرسى الذى كان هجر زى المشايخ وارتدى البدلة والقميص الافرنجى والكرافتة والجزمة ذات اللونين ، والذى كان ينتفض غضبا كلما ناداه أحدنا بلقب شيخ ، رأى أن ذكر كلمة جوافة عيب وخطأ لا يغتفر فى ورقة الامتحان .

وعندما جاء عام ١٩٣٩ كان يأتى لزيارتنا فى منزلنا رجل عجوز طيب للغاية محال على المعاش منذ عام ١٩٢٩ ، ولم يكن له عمل فى الحياة الا النوم بعد صلاة العشاء والنهوض فى الثالثة بعد منتصف الليل فيتوضأ ويخطف رجله الى مسجد صغير فوق نفق الهرم اسمه مسجدسيدى نصر الدين . . وفى هذا المسجد كان يقضى وقته كله يصلى جميع الفروض فى أوقاتها . . فاذا خرج من المسجد فالى منزلنا حيث يجلس صامتا أغلب الوقت يحتسى فنجان القهوة على مهل ، ويلعب بأصابعه النحيلة المرتعشة فى حبات مسبحته الطويلة .

وذات مرة كان عم الشيخ محمد فى زيارتنا عندما أعلن فى حماس شديد ان الحرب قد نشت فجأة ، وسمعت لأول مرة أسماء هتلر وموسولينى . . وكان شديد الحماس لهتلر ، وقال وهو يهز رأسه فى ثقة بالغة ان هتلر اسمه الحقيقى الحاج محمد ، وانه زار بيت رسول الله اكثر من مرة ، وأنه يخشى ان يعلن اسلامه فى الوقت الحاضر . وانه سيسفر عن موقفه فى الوقت المناسب بعد ان يحقق انتصاره الحاسم الساحق على الانجليز .

ولم تكن الحرب لها وجود فى مصر وقتئذ ، ولكن الحرب كانت تدور على لسان عم الشيخ محمد . . وكان يتكلم عنها بشغف ولذة . . وكان يتتبع أنباءها باهتمام زائد ، ثم فجأة امتد أثر الحرب الى مصر . . فقد دخلت الجيزة ذات صباح سيارة تابعة للجيش المصرى واقتحمت جنينة عبدالبر ، وراحت تزيل اشجار الجوافة بقسوة . . ثم حفرت الارض الى عمق كبير ، وشيدت جدرانا ، وعلمنا بعد ذلك انها أنشأت مخبأ لحماية الناس من اخطار الغارات الجوية ، ولم تكن هناك غارات جوية ، ولكن المخبأ كان مفيدا على أية حال ، فقد اتخذنا من المخبأ منتدى للجلوس والدردشة وحكاية القصص والروايات . .

وعلى هذا المخبأ تعلمنا تدخين السجاير . . وكان استاذنا الأول فى هذا الميدان هو طوغان ، كان يحصل كل يوم على سيجارة او سجارتين ، ثم يهرع الى المخبأ فى ساعة العصارى فيشعلها ويقدمها لنا . . فيشفط كل منا نفسا عميقا ويناولها للاخر . . وكنا اذا انتهينا من التدخين اخرج طوغان من جيبه طباشيرة وراح يرسم على جدران المخبأ عساكر انجليز تتحرك . . وعساكر المان تتقدم وعساكر تموت . . وعساكر تزحف . . ولكن كلهم كانوا عساكر والسلام . .

وتطورت المسألة مع طوغان اكثر فاشترى غطاء رأس لنفسه شبيها بغطاء الرأس الذى يرتديه عساكر الجيش الانجليزى . . وسرعان ماقلدنا طوغان فأصبح لكل منا غطاء رأس من نفس النوع . . ولكن المسائل تطورت كلها . . فأصبحت الحرب التى كنا نسمع بها ونسمع عنها حقيقة واقعة ، فقد انتشر عمال البلدية ذات صباح فى الشوارع ودهنوا مصابيح النور بلون أزرق كالح ، واصبحت شوارع الجيزة مظلمة سوداء . . أشد سوادا من قلب الكافر !

(٧)

وكان الجارحى بائسا غاية البؤس . ذليلا غاية الذل ، حتى عندما يتكلم بحماس او يفخر . . فإن صوته كان يخرج خفيضا منحنيا كأنه يتسول حسنة لوجه الله ! ولم يكن الجارحى يدخن سجاير ولكن نحن الذين علمناه ! وفى البدء كان عندما يشفط نفسا عميقا يقضى وقتا طويلا يكح حتى تدمع عيناه ويبصق حتى تبرز امعاؤه . . ورغم صوته القبيح المسلوخ لقد كان يحب الغناء ، وكان يغنى مواويل كلها ضعف وحزن وغلب واستكانة ، وكأن الاحزان التى تجثم فوق صدره أعلى من هرم خوفو وأثقل من جبل المقطم .

كان كل شيء فى البدء - أصبحت الجيزة - ظلاما فى ظلام ! الحرب قامت **وكما** ياجدع وشارع الترماى يشغى بالعساكر الانجليز والافريكان والهنود واجناس شتى لم نسمع بها ولم نسمع عنها من قبل . والعساكر معهم سجاير ولديهم بسكويت وفى جيوبهم مطاوى ، وهم دائما سكرانين ودائما مترنحين ومحافظهم متخمة دائما بالنقود .

وهم يشترون الشيء الذى يساوى قرشا ويدفعون عشرة ، وأحيانا يشترون ولا يدفعون شيئا . . وأحيانا يتفاهمون بالذوق ، وأحيانا يتفاهمون بالمطاوى . . ولاننا عيال ، ولاننا نشرب سجاير ، ولاننا فى منتهى الشقاوة ، فقد انطلقت صرخة من غزالى الى شارع الترماى ، وهربنا جميعا من حوارى الجيزة الى الميدان نتفرج على العساكر ونشاغلهم ونعاكسهم ، ثم تطورت المسائل اكثر فأصبحنا نخطف برانيطهم . . وكنا كلما خطفنا خطفة او هبشنا هبشة ، نعود جريا الى المخبأ نسهر مع الجارحى نشعل سجاير ونحكى قصصا ونضحك من الاعماق .

وكان الجارحى هو غفير المخبأ . . فى الثلاثين من عمره ولكنه لسوء التغذية كان يبدو فى العشرين . . أقرع الرأس أعمش العينين ، اصفر الجلد كأنه صينى أصيل !

وكان قبيح الصوت الى درجة تنفرك من جميع الاصوات . . صوت مبحوح مكتوم متحشرج ، وكأن صاحبه يموت !

وكان عندما يتكلم أحدق فى وجهه طويلا . فقد كنت أشك فى أنه يتكلم من فمه ، وكنت أعتقد أحيانا أنه يتكلم من كعوب رجليه . . ولم يكن الجارحى عسكرى فى الجيش العامل ولكنه كان عسكرى فى جيش انشىء خصيصا من أجل الحرب ثم صدر قرار بحله بعد ذلك . . وكان اسمه الجيش المرابط .

ولقد أنشىء هذا الجيش لحراسة المخابىء . ومنشآت الانجليز ومخازنهم ، وكان العسكرى منهم يتقاضى فى الشهر بضعة قروش . ويرتدى زيا مضحكا للغاية وكأنه اراجوز فى مولد الامام الشافعى . .

وكان الجارحى بائسا غاية البؤس ذليلا غاية الذل . . حتى عندما يتكلم بحماس او يفخر . . فإن صوته كان يخرج خفيضا منحنيا كأنه يتسول حسنة لوجه الله ! ولم يكن الجارحى يدخن سجاير ولكن نحن الذين علمناه !

وفى البدء كان عندما يشفط نفسا عميقا يقضى وقتا طويلا يكح حتى تدمع عيناه ويبصق حتى تبرز أمعاؤه . . ثم يجلس بعد ذلك مهموما مطرق الرأس وكأنه فقد عزيزا لديه . . ورغم صوته القبيح المسلوخ فقد كان يحب الغناء . . كان يغنى مواويل كلها ضعف واستكانة وغلب وحزن . . وكأن الاحزان التى تجثم فوق صدره أعلى من هرم خوفو واثقل من جبل المقطم .

وذات مساء كان معنا قرش صاغ واحد . . فاتفقنا على الجلوس فى المقهى وان نطلب براد شاى بقرش صاغ وان نتقاسمه جميعا وكأنه زجاجة ويسكى هيج . . وجلسنا على المقهى فعلا وطلبنا براد شاى فقط لاغير . . وجلسنا نشرب وكل منا يضع ساقا على ساق . . ومر من امامنا تلميذ معنا فى المدرسة ، وكان مهذبا ومؤدبا وغاية فى الاناقة والكمال . . وحيانا من بعيد كما يفعل الجنتلمان . . وكرجالة ارانات رددنا التحية بأحسن منها ، واتفضل ، ومتشكر . وحلفان بأغلظ الايمان . . ومسك فى الهدوم وانتهت المعركة بالجلوس على المقهى معنا . . واضطررنا الى ان نطلب واحد شاى للضيف العزيز . . وهكذا وقعنا فى المشكلة . . علينا للجرسون قرشين وليس معنا الا قرش واحد . واقترح عبدالسلام ان نعتذر للجرسون عن عدم وجود نقود معنا . وان ندفع له القرش الوحيد ونؤجل دفع القرش الآخر الى اليوم التالى . ولكن هذا الاقتراح رفضناه بالاجماع . . فمن يدرى ؟ ربما رفض الجرسون اللعين قبول هذا العرض وعندئذ قد ينهال علينا ضربا ولطشا ولكما . . وقد نخرج من المقهى بعاهة مستديمة بسبب الشهامة واكرام الضيف .

واقترح طوغان ان نتسلل من المقهى هاربين فرادى واحدا وراء الاخر . . واقترح ايضا ان يضرب لنا المثل ويكون اول المتسللين !! وفعلا تسلل طوغان من المقهى ، وتسلل عبدالسلام بعده ، وصلاح كرنك بعده . . وبقى غزالى وسعد كرنك والعبد لله . وكانت الخطة ان اتسلل انا بعد ذلك ثم سعد ثم يبقى غزالى وحده فى النهاية حتى يتحين فرصة مناسبة فيهرب بجلده من المقهى الى المخبأ .

ولكن غزالى رأى تغيير الخطة فجأة . . فمادمنا سنهرب . . فما الذى يمنع من أن نطلب مزيدا من الشاى ومزيدا من الدخان المعسل . . واذا غامرت فى شرف

مروم ، فلا تقنع بمادون النجوم . . على رأى المتنبى . وإنجعصنا فعلا ، وصفقنا للجرسون ، وطلبنا براد شاى مرة أخرى وكرسى دخان معسل . . وجلسنا نشرب وندخن ونبسط آخر انبساط ، فلما انتهنا اقترح غزالى مرة اخرى ان نهرب ومعنا الجوزة . . فهى لابد ستنفعنا على أية حال !

وفعلا بدأنا تنفيذ الخطة . . قمت انا من مكانى وتمشيت افرنجي نحو حلق المقهى والقيت نظرة على الجرسون الذى كان مشغولا عند النصبة . . فغمزت لغزالى ، فهب غزالى ومعه الجوزة هاربا فى اتجاه المخبأ وسعد كرنك يتبعه . . وانطلقت أنا فى الاتجاه الآخر .

وبعد دقائق كنا جميعا فوق المخبأ ومعنا الجوزة والجارحى . . وراح الجارحى يتفرج على الجوزة كأنها عجبة ، يتحسسها بيده كأنها قطعة حرير سكروته . . وبدت الدهشة على وجهه عندما أشعلنا فحما ، وحشونا الجوزة بالمعسل ورحنا نشد انفاسا عميقة حتى انقطعت أنفاسنا . . وعندما انتصف الليل قمنا الى بيوتنا . . واقترح سعد كرنك ان نترك الجوزة امانة لدى الجارحى حتى اليوم التالى . .

وكان سعد كرنك صبيا ريفيا من شبين الكوم ، وكان شديد النحافة . . دائم المرض ، ولكنه كان حادا كالسيف ، يستطيع ان يهزم رجلا فى الثلاثين ، وعندما وفد الى الجيزة اول مرة كان اسمه سعد زغلول الارناؤطى . . وكان لعبدالوهاب اغنية حديثة اسمها الكرنك . . وكان سعد شغوفا به يحب سماعها ، ولكنه كان ينطقها كرنك بفتح الراء بدل تسكينها . . فأطلقت انا عليه هذا اللقب وأصبح شهيرا به حتى أصبح رجلا ، بل أصبح علما عليه حتى مات منتحرا !

تركنا الجوزة عند الجارحى وانصرفنا ، وعندما عدنا فى الصباح وجدنا الجوزة تحطمت الى ألف قطعة ، والجارحى مريض اصفر الوجه كأنه جثة يربط رأسه بمنديل اصفر باهت ويشهق كأنه يعانى سكرات الموت ! وعندما سألناه عما دهاه أشار فى أسى شديد الى حطام الجوزة وهز رأسه ولم يتكلم . . الا بعد ذلك بأيام . .

الجارحى الغلبان الصدمان بعد أن تركناه مع الجوزة وانصرفنا ، فكر فى ان ينسجم وحده ، ولم يكن الجارحى قد استعمل الجوزة من قبل ، وكل الذى رآه هو قطع فحم مشتعلة ومجرد شفط انفاس من الغابة وكان الله يحب المحسنين . . وفعلا اشعل الجارحى فحما وراح يشفط بعمق ويشفط بنهم . . وشعر الجارحى فجأة بالرهقان وشعر بالدوخة ، وأحس انه يموت ، فنهض ثائرا وحطم الجوزة ثم نام على الارض مريضا يعانى سبعة أيام !!

وفى خلال ايام مرضه كان حريصا على أن يحضر مجلسنا فوق المخبأ . وكان

يفرش شوالا على الارض وينام بملابسه « الرسمية » ينصت الينا أحيانا ، ويغنى احيانا موالا كان يردده بمناسبة وبلا مناسبة .

أنا أصلى مش بطال لكين الأهل تعبونى . .
فى الوش حلوين ومن ورا ضهرى تعبونى . .
أنا قلت أسيب الوطن للكل ، وعملت جسمى معدية لدوس الكل ،
جيت أريح الكل لقيت الكل تعبونى !

وكان بين كل مقطع ومقطع يصيح من شدة الاعجاب ، الله ، تانى والنبى ياجارحى ياحلاوة . . فاذا انتهى من الغناء هز رأسه اعجابا ومصمص شفتيه من شدة الانسجام !

وشفى الجارحى من مرضه بعد أسبوع . . واستطعنا أن نجرجره معنا إلى أرض ماتوسيان . . فقد أرسلت لنا فرقة البحر الاعظم باصة لنلعب معها على دستة كازوزة . . وفى يوم اللعب اكتشفنا ان لاعبا منا قد اختفى . وأقنعنا الجارحى أن يذهب معنا ويلعب لنا حارس مرمى . . وشرحنا له الأمر هناك . . ووقف الجارحى حارس مرمى . . ولعبت أنا فى الجناح الايمن ، ودار اللعب بيننا وبين البحر الاعظم . . فريق فؤاد صدقى الشهير . . وجون واحد لم يدخل فى الجارحى ، أخذ اللعب جدا ، ورمى جتته على أقدام اللعيبة . . وانبطح رأسه وتحطمت ضلوعه وتسلخت ذراعاه . . ونزفت الدماء من أنفه .

وانتهت المباراة ليلتها بالتعادل . . لم نخسر ولم نكسب . . وقررنا الاحتفال بالجارحى . . وعندما سألناه عن الهدية التى يرغب فيها قال ولعابه يسيل .

ـ سانكويتش كفته .

وكان الجارحى يقصد ساندويتش ، واشترينا له ساندويتش كفته بقرش صاغ ، وجلسنا على سور نفق الهرم نتفرج على الجارحى وهو يقضم الساندويتش بشراهة كأنه يأكل آخر زاده .

وفجأة . . مر من تحت النفق طابور عساكر افريكان من شرق أفريقيا : مروا من تحت النفق فى طريقهم الى الهرم سيرا على الاقدام . وكانوا يسيرون واحدا وراء الاخر رغم اتساع الشارع وكأنهم يسيرون فى درب ضيق داخل غابة سوداء . .

وكان الطابور أثناء رحلته الطويلة نحو الهرم يتفاهم بطريقة مضحكة . كان الرجل الذى يقود الطابور يلقى سؤالا فيتلقفه الذى خلفه ويردده . . فينقله الذى خلفه ويردده حتى ينتهى السؤال الى الرجل الاخير ، فيجيب اذا كان لديه جواب . . ثم يعود الجواب من رجل الى رجل اخر حتى يصل الى الرجل الاول .

وفى رحلة مثل هذه من الجيزة الى الهرم كان الطابور البائس الغلبان يتبادل ثلاثة أسئلة وثلاثة اجوبة على الاكثر.

المهم أننا لمحنا الطابور يسير من تحت النفق فصحنا نحييه .. ورد الطابور التحية .. ثم بصق غزالى على الطابور، فبصق الطابور نحونا .. وتطورت المسألة الى خناقة والطابور البائس تحت .. ونحن فوق سور النفق .. وأرض ماتوسيان واسعة، وفى الارض طوب كثير ما أحلاه فى معركة مثل هذه .. وانحنينا على الارض نجمع طوبا .. وهات ياتحديف على طابور الافريكان ..

وتعالى الصياح وتصاعدت الصرخات، وتفرق الطابور مذعورا وحرضنا هذا المنظر على الاستمرار فى المعركة .. وسالت دماء الافريكان، وجلجلت ضحكاتنا واندمج الجارحى معنا .. واشترك فى المعركة، واستطاع بعض الافريكان فى النهاية أن يهربوا من الحصار .. واتجهوا الى مقدمة النفق من ناحية الجيزة ليقوموا بعملية التفاف حولنا ..

ولكن غزالى لحسن الحظ كشف اللعبة، فصاح صيحة مدوية كقائد مسئول .. اهربوا .. وأخذنا ديلنا فى اسناننا وهات ياجرى نحو قلب الجيزة .. وعندما وصلنا الى المخبأ، تفقدنا الجارحى فلم نجده .. كانت هذه هى المرة الأولى التى يغادر فيها المخبأ الى مكان اخر .. ومن يدرى ربما وقع اسيرا فى قبضة الافريكان ..

ومن جديد. عدنا نزحف الى نفق الهرم نستطلع الامر!

(٨)

وكانت الحرب سر نعمته وسر وكسته أيضا . . فقد وجد فيها مجالا يمتص مواهبه وامكانياته ، ثم حطمته فى النهاية وجرجرته الى السجن . . وكأنما كانت تجربة السجن بالنسبة إليه قاصمة قاضية . . فقد شاخ عشرين عاما فوق عمره . . وانحنى أكثر وشاب شعر رأسه وظل سنوات طويلة ولا حديث له الا السجن والعذاب الرهيب الذى هناك .

كان الجارحى هو أول من عرفناه من الرجال ، وكان نموذجا للريفى الطيب الساذج الخجول ، كان يحن إلى أيامه فى القرية ، وكان يحكى كثيرا عن ليالى الهنا القصيرة ، التى شهدها هناك .

وأحيانا كان يدندن بصوت خفيض لحنا غاية فى الحزن ، غاية فى الشجن ، ع الزراعية ، أنا نفسى أقابل حبيبى ، وكانت كلمة الزراعية على لسانه دائما ، ياسلام ياعيال ع المشى ع الزراعية ساعة العصارى ، تعرفوا الزراعية دلوقت ، ولو أكله فسيخ ع الزراعية فى القمراية .

كان يتكلم عن الزراعية بوجد وشغف وكأنه يتحدث عن أجمل مكان فى الارض ! ورغم حلاوة المدينة وجمالها فإنها لم ترقه كثيرا . . وحياة سيدنا النبى دى بلد جاحدة اللى يموت فيها مايلاقى الى يشيلوا ، دى العالم هنا يابا ما يعرفوش بعض ، طب دا أجدع تخين تايه هنا فى البلد دى ، أحمد زى الحاج احمد !

وكان الجارحى اذا صادف بعض الفلاحين فى المغرب يخترقون شوارع الجيزة مع قطيع من الجاموس ، يقف على الرصيف وقد بدأ الاسى على وجهه . وراح ينظر الى الفلاحين وقطيع الجاموس نظرات حادة ، ثم يستنشق ملء رئتيه هواء يعبق برائحة الجاموس ورائحة روثه ، وكان يتنهد ارتياحا بعد ذلك ، ويقول فى أسف عميق : يا سلام يا جدعان ، زى ماكون فى بلدنا !

ولكن مسلك الجارحى هذا لم يدم طويلا . . فسرعان ما أكلته المدينة وبلعته فى أحشائها . ولقد تسللت المدينة الى قلب الجارحى عن طريق العيش السخن والطعمية ، كان يحب الطعمية حب عاشق ولهان ، وكان العيش السخن يذكره بأمه التى ماتت منذ زمن بعيد ! والتى من بعدها لم يقدر له ان يذوق طعم العيش السخن أبدا .

وعندما ذهب الجارحى الى القهوة أول مرة كاد يجن ، فلم يكن فى قريته قهاوى ، ولم يكن يتصور أن فى امكان الانسان أن يجلس فى مكان ويطلب أى شىء ثم يجاب طلبه على الفور ، وفى القهوة تعلم الجارحى لعب الكوتشينة ، وعندما خسر نص فرنك كان معه أول مرة ، قضى الليل بطوله ينفخ من شدة الغيظ ، ومن النجمة كان فى القهوة مرة اخرى يحاول بما بقى من قروش ان يعوض خسارة الامس .

وظل الجارحى يغوص شيئا فشيئا فى أعماق المدينة حتى وصل الى الوحل ، خلع الجارحى فى النهاية ملابسه الرسمية وخلع معها ماكان يؤمن به من قيم ، وارتدى الجلابية السكروته والجزمة الكاوتش . ولمع فمه بأسنان ذهبية ، وتحول الجارحى الى قواد كانت له شهرة مدوية فى نهاية الحرب ، وعندما انتهت الحرب واختفى الانجليز من الجيزة ، لم يفكر الجارحى لحظة فى العودة الى القرية ، ولما سرحوه من الجيش المرابط ظل فى شوارع الجيزة يتسول أحيانا ويشتغل أحيانا ولكنه لم يعد أبدا الى مسقط رأسه فى الصعيد .

وكان على أبو مركب هو الرجل الثانى فى حياة شلتنا وكان على عكس الجارحى تماما ، كان ابن بلد حقيقى ، جعجاع يتظاهر بالفهلوة ، ويحكى قصصا خرافية عن مدى فهلوته وعينه المفتوحة ولابوابة المتولى ، وكان طويلا ونحيفا ووسيما على نحوما . وكان يشتغل بوابا لبيت عبدالسلام رغم عدم احتياج البيت إلى بواب ، وكان يخلع جلبابه أحيانا وينزل معنا الى الشارع يلعب الكورة بالفانلة واللباس ، وكان له صوت حسن ، فاذا انفرد بنا أحيانا جلس على التراب وتربع وراح يقرأ آية واحدة كان يحفظها من القرآن .

وكان دائما يردد بمناسبة وبلا مناسبة : بقى لو كنت دخلت الازهر مش كان زمانى بقيت ولا الشيخ رفعت ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها عن الشيخ رفعت ، وكان يقضى أياما طويلة يحكى لنا فيها قصصا فاجرة عن نساء التقى بهن ، وعن امرأة طويلة عريضة لها شعر مسبسب كعروس البحر ، بيضاء كالقشطة الصابحة . مربربة كالرغيف القمح ، وكان يحكى عن أصناف شتى من النساء ، كلهن عشقوه وأحبوه وأنفقوا عليه أموالا طائلة ، وكان عندما ينجلى فى الرواية يهمس لنا وكأنه يبوح لنا بسر خطير .

ـ عارفين انا بشتغل بواب ليه ؟ مش عشان محتاج يعنى ولا حاجة ، أنا بس باستخبا من واحدة ست حبشية عاوزة تسحرنى .

ولم نكن نسأل على أبو مركب تفاصيل جديدة عن هذه الست الحبشية ، ولا عن السبب الذى تريد أن تسحره من أجله ، ولكن صورة الست الحبشية التى

تطارد على أبو مركب لم تكن تبارح خيالى على الاطلاق ، وكنت أتخيلها إمرأة كالغولة . شديدة السواد ، عيناها شديدتا الاحمرار ، لها مخالب ولها أسنان .

وكان يعلن دائما فى فخر شديد أنه يأوى كل يوم الى غرفته تحت السلم ليدخن قدرا كبيرا من الحشيش قبل ان ينام ، وكان يقضى وقتا طويلا يصف لنا فيه الحشيش ، لونه ، وخصائصه ، والأثر الجميل اللذيذ الذى يتركه فى مدمنيه !

وذات مساء سألنى على أبومركب بعد ان قص علينا قصصا كثيرة .

ـ أنت مش بتتكلم انجليزى ؟ .

ولما أجبته بالايجاب ، قال وكأنه يأمر :

ـ طب ماتبقى تشوفلنا سيجارة حشيش مع واحد انجليزى . .

ولما أقنعته بأن الانجليز لا يدخنون الحشيش قال على الفور :

أنا قصدى واد عسكرى هندى ، حاكم الحشيش الهندى أجدع حشيش . .

وعندما انصرف على تلك الليلة ، كنت قد عزمت على ان القنه درسا لاينساه .

جمعت الشلة فى صباح اليوم التالى واطلعتهم على تفاصيل المؤامرة التى قررت ان أدبرها ضد على . . ولما وافقت الشلة بالاجماع ، قمت بتنفيذ المؤامرة على الفور . . كان معى كراس رسم ثمين ، وكان يفصل بين كل ورقة والورقة الاخرى ورقة ثالثة شفافة ، أكثر من ورق السجاير . . ونزعت ورقة من هذا النوع الشفاف ورحت إبحث فى شوارع الجيزة عن فشلة حمار حتى عثرت على واحدة ثمينة وناشفة وشكلها أصفر . ولما فركتها بدت كأنها دخان سجاير اصيل !

ولففت سيجارة ضخمة مبطرخة ، ونزعت ورقة مستديرة عليها رسوم من فوق بكرة خيط ماركة الخيالة ولزقتها على السيجارة كتبت على السيجارة نفسها عدة حروف انجليزية : صنعت فى انجلترا وذهبت الى على أبو مركب فى المغرب ، والليل يزحف على الكون ، والدنيا كانت صيف ، ونسمة حلوة طرية تهب على الجيزة من ناحية الصحراء ، وسحبت على أبو مركب معى الى الارض الخلاء حيث كانت تنتظر الشلة كلها .

وعندما أطلعت على أبو مركب على السيجارة وقف فترة طويلة يتفرسها ويشمها ، ثم قال فى زهو شديد :

ـ ياسلام . . شوف الحشيش الهندى . . الواحد بقاله زمان ماشربش حته نضيفه زى دى .

ووضع على أبو مركب السيجارة بين شفته ، وعبثا حاولنا اشعالها بالكبريت فلم نفلح ، وعندئذ خطفت ورقة جرنال من فوق الارض واشعلتها كلها ، ورحت أشعل منها طرف السيجارة . . بينما راح على يشفط من الطرف الاخر

انفاسها سريعة متلاحقة ويشفط دخانها بسرعة وينفثه من أنفه دون انقطاع !
وعندما أتت النار على نصف السيجارة كان على لايزال منهمكا فى عملية الشفط والتدخين ونفث الدخان بلا توقف .. وفى خلال هذا الوقت الطويل ، كانت قطعة كبيرة من فشلة الحمار قد تسللت الى فم على أبو مركب ، وزيادة فى الانبساط ركن هذه القطعة تحت لسانه وراح يستحلبها فى لذة ليس لها مثيل وفجأة تبين طعمها وأدركه ، فتوقف لحظة ، وانتزع السيجارة من بين شفتيه وراح يلتقط من فمه هذه القطع ذات الطعم الغريب ويقربها من أنفه محاولا استجلاء سرها .. وعندما شمها أدرك كل شيء ..
وكنا قد سقطنا جميعا فوق الارض نضحك بلا انقطاع .. ضحكا هستيريا مجلجلا ، وهم على لحظة ان يثور وان يعتدى علينا ، ولكن يبدو أنه عدل عن ذلك فجأة .. فتحول الى ناحية الحائط ، وانحنى قليلا وراح يتقيا بصوت رهيب وكأن سما زعافا قد أصابه فى الصميم !
ولزم على أبو مركب حجرته بعد ذلك لم يغادرها أياما .. ثم لم يلبث ان أختفى من بيت عبدالسلام ومن الجيزة كلها .. ولم نعثر له على أثر بعد ذلك .. ولكنه ظهر فى أعقاب الحرب ويده مقطوعة .. ضربة انجليزى فى يده بالمطوة فمزق شرايينها ، و قضى شهورا طويلة فى القصر العينى بين الموت والحياة ..
وعندما خرج من القصر العينى بيد واحدة ، ارتدى البدلة واحترف نشل الانجليز فى الملاهى والسينما والتراميات !
وعندما اختفى الانجليز من القاهرة لم يعد الى مهنته الاولى أبدا ، بل ظل ينشل مايصادفه من جيوب .. حتى ضبطوه ذات مرة ينشل رجلا غلبانا فى حديقة الحيوان .. ويومها ثار الناس عليه وضربوه ضربا مبرحا حتى مات !
ولكن ثالث الرجال الذين عرفتهم واهمهم وأعمقهم أثرا فى نفسى كان يملك دكان مكوجى فى شارع عباس ، وكان له شكل الديك ، ونفسية فنان ، وسلوك قاطع طريق ، ولقد تعلمت من هذا المكوجى ما لم أتعلمه فى المدارس ..
لقد رأيت روايات الجيب أول مرة فى دكانه ، وعرفت المسرح لأول مرة وأنا جالس أستمع إليه على عتبة بابه ، فلقد كان من هواة التمثيل ومن أنصار فرقة رمسيس ، وكان يعبد يوسف وهبى ويحفظ ادواره كلها عن ظهر قلب .. وكان كسولا لايحب العمل صباحا .. فكان يشرب أحيانا ويلعب القمار أحيانا ويطفش من الجيزة كلها أحيانا ليسوح فى أرض الله .
وكانت الحرب سر نعمته وسر وكسته أيضا . فقد وجد فيها مجالا يمتص مواهبه وامكانياته ثم حطمته فى النهاية وجرجرته الى السجن .. وكأنما كانت

تجربة السجن بالنسبة إليه قاصمة قاضية .. فقد شاخ عشرين عاما فوق عمره . . وانحنى اكثر وشاب شعر رأسه ، وظل سنوات طويلة ولا حديث له الا السجن والعذاب الرهيب الذى هناك . . ولكن السجن الذى استطاع ان يمتص بدنه لم يستطع قط أن يمتص حيويته ، ولم يتمكن قط من روحه القلقة الوثابة ولم يسحق روح المغامرة فيه . .

وظل عبده حتى بعد ان شاخ فعلا وتهدم . . شديد الرغبة فى التغيير . . شديد الثورة على كل شيء . وظل دائما يحلم بالمسرح . . وبأن الحظ سيبتسم له ذات يوم . . فيقف على خشبته تحت الاضواء ينحنى فى رشاقة لآلاف المعجبين .

(٩)

وحول باجور عبده المكوجي استمعت إلى أعظم القصص والروايات . . قصص أنا كارنينا ، والجريمة والعقاب ، وقصص أرسين لوبين كلها ، قصص مختلفة ، كان عبده يرويها بحماس ، وذات مساء فاجأنا عبده بسر رهيب خلاصته أنه يقود عصابة عن عتاة المجرمين وانه سطا على أكثر من بنك وخطف أكثر من عشرة ملايين جنيه .

انتقلت الشلة كلها من مخبأ الجارحي الى دكان عبده ، وكان أبرز مايجذبنا الى دكان عبده هو الدفء الذى كان يشيع فيه خلال ليالى الشتاء ، حيث كان باجور الجاز المشتعل يوش باستمرار والمكاوى عليه ، وفوق المكاوى كوز اسود فى لون الزفت مضروب فى جوانبه ومبطوح فى أكثر من موضع ، وكان عبده يغلى فى هذا الكوز كمية ضخمة من الشاى ، وكان عبده سخيا علينا غاية السخاء . . كان اذا انتهى من صنع الشاى اقتسمه معنا ، ثم يجلس بجوار الباجور يرتشف الشاى بصوت مسموع وعلى وجهه المغضن الناشف تبدو السعادة التى ليس لها مثيل .

وعادة عند عبده أن يشعل لنفسه سيجارة أثناء شرب الشاى ، ولكن هذه العادة كلفته كثيرا . فقد كان يضطر الى أن يشعل لنفسه ، سيجارة ويشعل لنا سيجارة اخرى ! وعندما كانت تضيق به الحال ، كان يكتفى باشعال سيجارة واحدة ، ثم نمضى « نخمس » فيها فى هدوء وانسجام .

وفى هذه القعدات حول باجور عبده المكوجى . . استمعت إلى أعظم القصص والروايات ، قصص انا كارنينا ، والجريمة والعقاب وقصص أرسين لوبين ، كلها قصص مختلفة ، كان عبده يرويها بحماس غريب !

وذات مساء فاجأنا عبده بسر رهيب خلاصته أنه يقود عصابة من عتاة المجرمين ، وأنه سطا على أكثر من بنك وخطف أكثر من عشرة ملايين جنيه ثم تنهد فى عمق وقال فى منتهى الهدوء :

ـ بس مش غايظنى غير أحمد عبدالرحمن . . وعندما سألناه عمن يكون احمد عبدالرحمن هذا . . الذى يغيظ عبده العظيم ، أجاب فى هدوء أشد :

دا رئيس المباحث . .

ولم نكن قد سمعنا عن أحمد عبدالرحمن من قبل ، رغم أنه كان أشهر رجل فى مصر ، وكان رجلا شديد الذكاء شديد البأس . . استطاع أن يلقى الرعب فى قلوب المجرمين .

وعندما اطمأن عبده إلى أننا لا نعرفه ، راح يحكى لنا أنباء المعارك التى خاضها ضده . . والتفاصيل التى روتها الصحف عن تلك المعارك . ثم توقف عبده فجأة عن الحديث وراح يعبث بشاربه ثم قال يسألنا :

ـ حد فيكو معاه ساعة ؟

ولم يكن مع أحد منا ساعة ، ومع ذلك سألناه عن سبب سؤاله . . فقال وهو يهز رأسه ويجز على أسنانه :

ـ أصل النهاردة ان شاء الله حتكون المعركة الفاصلة .

وعندما سألناه مزيدا من المعلومات عن هذه المعركة الفاصلة :

قال بصوت خفيض :

ـ النهاردة الساعة عشرة لازم أخلص على احمد عبدالرحمن وعاوز الساعة عشان كده .

وعندما استفسرت انا عن علاقة الساعة بمسألة التخليص على أحمد عبدالرحمن قال عبده :

ـ أصلى لازم أطفى النور الساعة عشرة الا دقيقة . . عشان كده عاوز ساعة مظبوطة اخدها معايا وانا رايح المشوار ده . .

وصمت عبده وقتا طويلا ثم استطرد فجأة :

ـ أى خطأ فى الحساب هيسبب كارثة .

ولم نفهم نحن معنى الخطأ فى الحساب الذى سيتسبب فى كارثة . . ولكن العبارة كما قالها عبده كانت غامضة ورهيبة ولها وقع حسن فى النفوس . . ولذلك سكتنا جميعا ولم نعلق على شىء .

ولم تمض نصف ساعة حتى استطاع عبده الحصول على ساعة جديدة ومظبوطة . . جاء الى الدكان طالب جامعى يرتدى جلبابا وجاكتة على الاكتاف ونضارة بشنبر سلك رخيص . . وانتحى به عبده ركنا بعيدا فى الدكان وراح يهمس فى أذن الطالب ، ووجهه المعبر يتشكل ويتلون . . وكلمات متناثرة تصل الى أسماعنا من بعيد : العصابة ، والساعة ، وعشرة الا دقيقة ، وأحمد عبدالرحمن .

وبدون ان يفتح الطالب فمه ، نزع الساعة التى حول معصمه وناولها لعبده وانصرف ، وعندما استقرت الساعة فى جيب عبده ، بدت السعادة على وجهه ، وأغلق الدكان سريعا واستأذن منا وانصرف .

وقضينا الليل بطوله نفكر فى علاقة طالب الجامعة بعبده المكوجى ، ثم استنتجنا فى النهاية ان الطالب عضو فى عصابة عبده ، وغاب عبده ثلاثة أيام كاملة ودكانه مغلق ، ثم ظهر بعد ذلك ومعه علبة سجاير عشرين ، وتحت جلبابه بدت فانلة جديدة حمراء بكم طويل ، وقد حلق شعر رأسه ، فبدا أصغر خمس سنوات عما كان ! وعندما سألناه عن نتيجة المعركة الفاصلة مصمص شفتيه وهز رأسه أسفا وقال بصوت مخنوق :

ـ باظلت ، لكن معلهش .

ولم يزد عبده حرفا بعد ذلك ، ولكنه عندما جلس جلسته المعتادة الى جوار الباجور يشرب الشاى بصوت مسموع ويشفط انفاسا عميقة متلاحقة من السيجارة ، راح يروى لنا القصة بالتفصيل .

ـ أنا دخلت الشقة الساعة تسعة ونص ، رحت ع الشباك ، ضربت الخنجر فى الشيش سحبت الخنجر لبرة ، وزقيت القزاز ، انفتح رحت ناطط على طول !

وكنا نحبس أنفاسنا أثناء الحديث حتى لا يفوتنا حرف واحد مما يقول ، وكان عبده لايحكى طويلا ، كان يحكى فترة ويستريح فترة ، يهرش فيها فى شعر صدره ، أو يعبث بأصبعه فى أذنه ، او يلقى نظرة على المارة خارج الدكان قبل ان يعود الى الحديث من جديد .

ـ وفضلت قاعد فى الشقة من تسعة وخمسة لحد عشرة الا دقيقة ، ورحت طافى النور ، عشرة بالضبط سمعت رجل ماشية ع السلم ، حطيت ايدى فى جيبى حسست على مسدسى ، وفجأة . .

وكان عبده يتوقف عن الحديث عند فجأة هذه ليعبث فى شعر صدره ، او يشعل لنفسه سيجارة ، أو يلقى نظرة على المارة فى الطريق .

ـ ولقيت احمد عبدالرحمن ، والنور مولع فى وشى ، قاللى ارفع ايدك ياعبده ، رحت رافع ايدى على طول ، أقول الحق ، أنا خفت . أول مرة اخاف فيها صحيح . لكن هو مين ؟ فكرت بسرعة وبعدين طلبت منه أشرب سيجارة . وافق ، طلعت العلبة ورحت ضارب لمبة النور ، ورحت ضارب نار ، ورحت زايغ منه .

ولكن طالب الجامعة صاحب الساعة عاد بعد أيام وعقد اجتماعا مع عبده ثم ذهب .. وعندما سألنا عبده عن سر الاجتماع قال وهو يهرش فى بطنه :

ـ أصل المبلغ بقى تقيل قوى ، عشرين مليون جنيه فى البنك دلوقت .

وعندما قلت لعبده :

ـ طب ما تبطل شقاوه بقى ياعبده وتاخد الفلوس دى تبنى بها عمارة .

وقال عبده وهو ينظر نحوى نظرات حادة ،

- لما اخلص من أحمد عبدالرحمن .

وذات مساء وانا جالس مع عبده على الرصيف امام الدكان ، عرض عبده على الدخول فى العصابة .

- ما تدخل العصابة معانا ، واهى لقمة ناكلها سوا .
- بس أنا هاخش معاكو ازاى ؟
- زيك زينا ، حتى الفلوس اللى فى البنك تبقى شركة معانا بيها
- بس أنا ماقدرس اهجم ع البنوك ياعبده .
- مش مهم ، خد قفاز واشتغل .

وشرح عبده لى مهمة القفاز ووظيفته ، والقفاز هو حذاء طويل حتى الركبتين ، اذا ارتداه انسان استطاع ان يقفز به من فوق قمة هرم خوفو دون ان يصيبه مكروه .

ولما وافقت عبده على الدخول فى العصابة ، قال وهو يمد يده نحوى ويفردها .

- طب هات خمسة وعشرين قرش اشتراك . ولما ابديت له عدم استطاعتى دفع هذا المبلغ ، قال على الفور :

- طب هات ريال . .
- ولا أقدر أدفع ريال .
- طب هات اللى معاك
- مامعيش غير نص فرنك .
- طب زى بعضه ، روح هاتلنا أربع سجاير هلب ، وبالباقى شاى .

وهكذا ، باربع سجاير هلب ، وباكو شاى ، أصبحت عضوا فى عصابة عبده المكوجى ، وذات مساء وانا جالس مع عبده على الرصيف نكتب كشفا بالثروة التى أصبحت لنا فى البنوك . جاء طالب الجامعة فجأة ، وطلب من عبده ان يرد الساعة او يرد ثمنها على الفور ، وحاول عبده ان يعتذر عن التأخير ولكن صوت الطالب الذى ارتفع فجأة اثار عبده فنشبت معركة بين الاثنين جذبت الينا عددا

من الناس وسكان شارع عباس . . وانتهت المعركة بهزيمة الطالب ، فقد كان ضعيفا ونحيفا وأصفر اللون ، وكأنه مريض بالسل !

وعلمت من عبده فى تلك الليلة ، انه باع الساعة ، وعندما سألته بسذاجة عن السبب فى بيعها ، قال وشبح ابتسامة تبدو على شفتيه :

- عشان احمد عبدالرحمن مايظبطهاش .

ولقد ظللت مؤمنا بعبده وبكل مايحكيه من قصص وروايات ، وكنت اقنع عددا من اصدقائى بضرورة دخول العصابة . ودفع الاشتراك . ولقد دخل بعضهم فعلا ودفعوا الاشتراك فعلا .

وكان عبده ياخدنا كل صباح الى المخبأ لنقوم بتدريبات على القفز من فوق المخبأ ، وكنا نقفز حتى تدمى وجوهنا ، بينما عبده يجلس فى الشمس يدخن فى هدوء ويشفط بصوت مسموع من كوز الشاى !

ولكن الحكيم كشف عبده وفضحه ، وتبينت آخيرا انه نصاب ، وكان محمود الحكيم شديد القصر ، كلما رأيته حسبت أنه رجل يجلس على كرسى . . وكان يحمل معه دائما عصا طويلة يشوح بها فى وجوه الناس ، وكان جعجاعا له صوت رفيع مسلوخ ، وكان عبده يخشاه ويهابه ويعمل له ألف حساب .

وذات صباح جاء الحكيم الى المخبأ وجلس يشاهد تدريباتنا العنيفة ، ثم همس فى اذن عبده بشىء ، وارتبك عبده واخرج من جيبه علبة سجاير اعطاها للحكيم ، ولكن الحكيم القى بها على الارض احتقارا لشأنها ، وقال بصوت مسموع :

ـ أنا عاوز حقى ، أنا مش هندى .

وقال عبده بصوت ذليل .

ـ طب مش دلوقت ياحكيم .

ولكن الحكيم لم يسكت ، شخر ونخر وسب الدين والدنيا ، وعرفنا من خلال الخناقة أن الخلاف كان علينا ، وان الحكيم عرف أن عبده نصب علينا ولذلك لابد ان يأخذ حقه . وانزوى عبده بعد ذلك وقاطعناه ، ولكن بعد فترة ترددت على دكان عبده كالعادة ، وتوطدت صلتى به أكثر بعد أن انكشف امامى ، بل تعمقت هذه الصلة فأصبحت اشاركه الطعام احيانا ، واقتسم معه مايحصل عليه من سجاير . وكان أكثر ضحاياه من طلبة الجامعة ومن خدم المنازل .

ولكن ذات يوم جاء عبده الى الدكان ومعه جندى افريكى اسمه ماير . وكان ماير طويلا وبلا أسنان يحمل معه مطوه حادة لامعة . . وكان لصا عريقا فى الاجرام ، كان يستولى على كميات هائلة من الشاى والبطاطين من مخازن الجيش ، وكان عبده يتولى مهمة تخزينها وبيعها للتجار ثم اقتسام ثمنها مع ماير .

وكانت صداقتهما من نوع غريب ، فلا عبده يعرف حرفا من لغة الأفريكى ، ولا الأ فريكى يعرف حرفاً من لغة عبده . ومع ذلك كانت المصلحة المشتركة

تربط بينهما أوثق رباط . ولكن هذه الصداقة سرعان ما انحلت عراها . فقد هجمت قوات البوليس الحربي على دكان عبده ذات مساء وعثرت بداخله على صندوق شاى وحملت العسكرى ماير معها .

وذهب عبده الى السجن . وكانت الحرب قد اقتربت من حدود مصر الغربية ، والغارات الجوية أصبحت كالرز ، والمهاجرون يملأون الشوارع ، وموعد امتحان الابتدائية يقترب . ولا أحد منا يذاكر ولا أحد منا يستعد ، الاستعداد الوحيد كان لاستقبال الطليان عندما يدخلون مصر .

ولم يكن هناك أسعد من المعلم قطب ، كان يسأل كل يوم عن الأخبار ، وكان يرقص من شدة الفرحة كلما سمع من أنباء انتصارالطليان ، وذات صباح أعلن المعلم قطب موقفه بصراحة ، فقد اشترى صورة لموسوليني ووضعها على باب الدكان .

(١٠)

كان المعلم قطب يحلم بدخول الالمان وعندئذ يستدعونه من دكانه ويعينونه على خزائن الجيش الالمانى ويطردون عبده ومن على شاكلته من خدمة المعسكرات . ولكن حلم قطب لم يتحقق . . وظل يبيع شيئا بعد شيء ، حتى لم يعد يملك شيئا الا الجلباب الذى يستر بدنه ، حتى أرفف الدكان . باعها ليشترى علبة سجاير وباكو شاى . وعندما انتهت الحرب كان قطب قد شاخ وتهدم رغم أنه لم يكن قد بلغ الاربعين .

كان العلم قطب من أشرف وأصلب العناصر ضد الانجليز فى الجيزة .
ولقد كان يحتقر الانجليز ويكرههم ، وكان يتولى نشر الدعاية للالمان والطليان مجانا لوجه الله ، وكان يؤمن ايمانا لايتزعزع بأن هتلر مسلم وأنه حج الى بيت الله الحرام . وكان على خلاف دائم مع عبده المكوجى لان عبده يصاحب العساكر الافريكان ويتعامل معهم ، وكان نموذجا طيبا للفلاح المصرى الذى عاش فى المدينة بروح وتقاليد الفلاح ، فلم يستطع ان يفهم روح المدينة ، ولم تستطع المدينة ان تشده فى تيارها .

وكان قطب دائم الحديث عن قريته جنزور فى المنوفية ، وعن والده الذى كان يملك ..بدية فى الرياح المنوفى ، والذى كان يمتلك الى جانب المعدية خمسة افدنة من اجود الاراضى فى المنوفية ، مات فجأة بعد مرض قصير فتوزعت ثروته على عشرة ابناء ، وتوزع ابناؤه ايضا الى كل مكان !

وكان قطب يحب الطرشى البلدى حبا يبلغ حد العشق ، وكان يأكله دائما حتى مع الجبنة القديمة والفسيخ ! وكان اذا أكل وجبة طيبة بالصدفة ، وشرب شايا أسود كالحبر وأشعل لنفسه سيجارة كاملة ، كان يحلو له عندئذ ان يتحدث عن أيامه فى القرية حيث كانت رائحة الملوخية الخضراء والتقلية لا تنقطع من داخل الدار . وكان دائم الحديث عن جده الشيخ محمد الجمل الذى كان يتمتع بقوة ولا قوة الجمل العرباوى الاصيل ، والذى لقبه اهل القرية بالجمل لانه حمل جملا على كف يده ذات يوم من عام ١٩١٥ ، وكان يحكى القصة كثيرا ويحكيها دائما ، وبمناسبة احيانا ، وبلا مناسبة فى أغلب الاحيان ؟

تعرف الشيخ محمد الجمل مات ازاى ؟ مات غدر واللى خلقك ، موتوه الانجليز .

قتلوه الانجليز فى ثورة ١٩١٩ ، كان يزرع حقله فى هدوء . ثم فجأة . شاهد خلقا كثيرين يهربون فى اتجاه النهر . ومن خلفهم عساكر انجليز يطلقون

النارع الفاضى وع المليان ، وقبل ان يستفسر عما حدث انطلقت نحوه رصاصة فسقط الشيخ محمد الجمل ميتا بلا حراك .

وكان عندما ينتهى من سرد القصة يبدو عليه الاسى والاسف الشديد ، ثم يهز رأسه فى عصبية بالغة ، ويقول بصوت مرتعش :

طيب واللى خلقك انا خايف على هتلر ، اصل الجماعة الانجليز دول غدارين ، دول قتلوا الشيخ محمد الجمل بالغدر ، وممكن يقتلوا هتلر كمان .

وكان اذا رأى انجليزيا يترنح فى الشارع نظر إليه نظرات من نار ، ويبصق على الأرض بشدة ثم يرفع ذيل جلبابه الى أعلى ، ويهتف بصوت خفيض :

- اخص على ده زمان أوسخ عالم والله العظيم .

ورغم ذلك كان المعلم أحيانا يسعى للعمل عند ألانجليز ولكنه كان دائما يفشل فى تحقيق غرضه ، لم يكن المعلم قطب يجيد شيئا على الاطلاق ، وكان يحلم دائما بأنه سيعثر يوما ما على كنز أو خاتم سليمان ، وأحيانا كان يسألنى فى قلق :

- إلا الجماعة الالمان لما يخشوا مصر . . هيعرفوا ان أنا كنت واقف معاهم ؟

كان المعلم قطب يحلم بدخول الالمان وعندئذ يستدعونه من دكانه ويعينونه على خزائن الجيش ويطردون عبده ومن على شاكلته من خدمة المعسكرات . ولكن حلم قطب لم يتحقق . . وظل يبيع شيئا بعد شىء ، حتى لم يعد يملك شيئا إلا الجلباب الذى يستر بدنه ، حتى أرفف الدكان باعها ليشترى علبة سجاير وباكو شاى .

وعندما انتهت الحرب كان قطب قد شاخ وتهدم رغم أنه لم يكن قد بلغ الاربعين ، تحطم قلب قطب تماما عندما مرقت سيارة جيش انجليزى فى شارع عباس يقودها عسكرى سكران وأكلت السيارة الولد سيد آخر اولاد المعلم قطب ، قتل الانجليز جده وقتلوا ابنه ، وسحب اولاده وهراديبه وغادر الجيزة الى الابد وعاد الى جنزور .

كان يوم امتحان الابتدائية يوما عصيبا للغاية . . ففى فجر يوم من أيام الصيف عام ١٩٤٠ خرجت من منزلى الى منزل غزالى وسحبته من يده الى شارع الترماى الى مدرسة السعيدية حيث كانت لجنة الامتحان .

وعندما اخترقنا ميدان الجيزة وتوغلنا فى شارع المدارس انطلقت صفارة الانذار،انطلقت المدافع والقنابل تهز الارض والفضاء والجدران ، وعندما انتهت الغارة كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا ، ولذلك تأخر الامتحان نصف ساعة كاملة . وعندما انتهى كانت أخبار الغارة قد انتشرت فى كل مكان .

ولأنها كانت اول غارة حقيقية على مدينة القاهرة ، فقد كانت موضع اهتمام الناس ، وصدرت ملاحق من صحف الصباح وفيها أنباء الغارة وعدد الضحايا وعدد الطيارات التى أسقطتها مدافع الميدان ، وكان حى العباسية هو الذى ناله النصيب الاكبر من قنابل الالمان .

وكان فى شارع المدارس عدة معسكرات لعساكر شرق افريقيا، وكانت العساكر لسبب لا أدريه فى منتهى الشراسة وفى غاية الضيق ، وفى آخر ايام الامتحان كنا نمر من امام المعسكر حين تصدى لنا جندى افريكى وفى يده مطوة حادة لامعة ، صرخ فى وجوهنا .

يلا ولد جون . .

وانحرفنا نحن الى الرصيف الآخر ولكننا لم نهرب من وجه الافريكى بل وقفنا على الرصيف وتسلحنا بالطوب ، وعندما عاود الجندى هجومه علينا انهلنا عليه بالطوب ففر مذعورا الى المعسكر ، وفعلا زحفنا نحو الاسلاك الشائكة وضربنا المعسكر بالطوب ، ولكننا انسحبنا على الفور عندما خرج العساكر الافريكان من المعسكر ومعهم مطاوى وخناجر واسياخ حديد .

وجرينا والأفريكان من ورائنا نحو المدرسة السعيدية واقتحم العساكر الأفريكان المدرسة وهجموا على خيمة الامتحان واضطر الناظر الى ابلاغ البوليس فعلا ، وجاء البوليس الحربى الانجليزى واضطر الافريكان الى الانسحاب .

وعندما انتهى الامتحان اضطررنا الى أن نلف عشرة كيلو مترات متجهين نحو قرية أبو قتاتة الى شارع الهرم الى الجيزة حتى لا نمر على كامب الافريكان . . وسرعان ماظهرت نتيجة الامتحان ونجحنا جميعا . . وأصبحنا بمقتضى الشهادة الابتدائية رجالا نصنع ما يحلو لنا ونسهر كما نريد ونلعب كما نبتغى ونجلس فى المقهى دون خجل ، وندخن السجائر ونلعب الكوتشينة بالقروش

وكانت الحرب قد اشتعلت أكثر . . والدنيا تشقلبت أكثر ، خادمات أصبحن راقصات . . وخدم بيوت أصبحوا أفندية ومعهم فلوس . . وصياع أصبحوا فى زمرة أصحاب الاملاك . . ونسوة شريفات خرجن الى الشارع بحثا عن النقود فى جيوب الانجليز . . وكل شىء يتغير حاله ويتطور إلا الموظفون والعمال . .

الفقر كبس على أهالينا وعلى بيوتنا ، حتى العيش أصبح عزيزا كأنه الصيد الحرام ، مطالبنا زادت وفلوسنا شحت . حتى أصبحت ذكرى من الذكريات . . والفلوس تجرى مع الانجليز كالنهر الجارى ، ونحن نستطيع ان ننصب ، ونستطيع ان نخطف ، ونستطيع ان نغترف من الكنز الذى أنفتح فجأة بفضل الحرب التى تدور عند الحدود . .

وانطلقنا من جديد الى شارع الترماى ، ليس لدينا خطة وليس لنا برنامج ، ولانعرف اى سبيل سنسلك ؟ وأى طريق سنرتاد ! وأى عمل سنقوم به ؟ لم يكن أمامنا هدف إلا الفلوس . . ولم يكن هناك فلوس إلا مع عساكر الحلفاء . . ووقفنا عند شارع الترماى نلاغى العساكر ونشاغبهم .

أيام كثيرة مرت دون ان نحصل على شىء . . ولكن أسبوع واحد مر بسلام وجاء الفرج ، جاء فى صورة عسكرى من جنوب افريقيا طلب منا خمرا ، وسحبنا العسكرى الى دكان عم عزيز واشترى اربع زجاجات منه ومضى . . ومد عم عزيز يده لنا وفيها عشرة قروش وقال بصوت أجش وكأنه صوت وابور جاز مخنوف .

عشرة صاغ اهه . . كل ما تجيبوا عسكرى أديكو عشرة صاغ .

ولم يكن فى دكان عم عزيز شىء الا برميل واحد وعدة زجاجات فارغة ، وبحكمة عم عزيز . . أن فى هذا البرميل الواحد تجد كل الاصناف ، كونياك وروم وطافيا من جميع الالوان .

وفى تلك الليلة عندما جلسنا على المقهى نشرب الشاى ونلعب الكوتشينة اقترح غزالى ان ننافس عم عزيز . . وكان اقتراحا وجيها وافقنا عليه ، وفى مساء اليوم التالى كان معنا عشر زجاجات كونياك فاخرة معبأة بمية طرشى مخلوط بالسبرتو الاحمر ، كلفنا الزجاجات العشر . . عشرة قروش كاملة . . واتخذ غزالى محلا مختارا له على الرصيف فى ركن مظلم من ميدان الجيزة . . وسرحت أنا على الرصيف أدلل على زجاجات الخمر . . وفى تلك الليلة سحبت أكثر من جندى الى عم غزالى ، وباع عم غزالى الزجاجات كلها وحصلنا على جنيهين . .

وزعنا جنيها ونصف جنيه على الشلة واحتفظنا بنصف جنيه لعملياتنا التجارية فى المستقبل !

وهكذا أصبحنا من اثرياء القوم .. وأصبح دخلنا فى اليوم الواحد يتراوح من جنيه الى ثلاثة جنيهات .. ومضت الحياة بنا سعيدة نبيع مية الطرشى والسبرتو .. ثم نقضى الليل فى المقهى نشرب الشاى وندخن الشيشة ونلعب الكوتشينة .

وكان يمكن أن تمضى الحياة هكذا والى الابد .. لولا .. لولا أن دخلت الجيزة سيارة لورى انجليزى وتوقفت عند مقهى المعلم أمين التى كنا نجلس فيها .. ونزل من اللورى أومباشى انجليزى ، وسألنا عن تاجر يريد أن يشترى عدة أطنان من الشاى . وقفزنا على اللورى وانطلق الأومباشى الانجليزى بنا وبالشاى إلى شارع عبدالمنعم فى الجيزة .. إلى بقالة شنودة وشركاه !

(١١)

وكان خلف قصيرا دميا كأنه خنفسة يرتدى جلبابا ليس له لون .. فى وجهه دمامل لا تطيب على الاطلاق ، وذات مرة شطح خيال خلف فأراد أن يتزوج ابنة خاله .. وكانت مثله عجفاء كأنها بقرة فى أيام مجاعة .. شرشوحة كأنها كلبة صايعة .. قصيرة كأنها نصف امرأة لا تزيد .

خرج عم شنودة من دكانه مذعورا فى الليل ، يلف جسمه النحيل ببالطو أسود ثقيل ، ويلف عنقه المكركش بكوفية ، .وتهتز فوق أرنبة أنفه نضارة رخيصة بخمسة ساغ .

وألقى نظرة على الكنز الذى يرقد فى بطن العربة اللورى ، ثم جاء بصبيانه فحملوا صناديق الشاى الى الدكانة ، ونفح الجندى الانجليزى ورقتين كل ورقة بمية ، ورفع الجندى الانجليزى يده لنا ملوحا ، وقذف فى وجوهنا بخرطوشة سجاير بحارى كاملة ، وقفز الى اللورى واتجه به فى أقصى سرعة ناحية المعسكرات .

وخلا الشارع المظلم الا منا ومن عم شنودة وصبيانه يرصون صناديق الشاى فى ركن من أركان الدكان . . ووقفنا كاليتامى الغلابا أمام الدكان لا نتكلم ولا نتحرك وقد رسمنا على الوجوه ابتسامات باهتة صفراء لاتحمل الا معنى النفاق لعم شنودة العجوز . . وعندما اطمأن عم شنودة الى أن كل شيء على مايرام . . كعبش بين اصابعه ورقة بخمسة جنيهات ودسها فى يد غزالى . . مكافأة لنا على صفقة الشاى .

وانطلقنا جريا الى شارع الترماى ، وثلاثة أيام نشرب الشاى فى المقهى والدخان المعسل ونلعب الكومى بالفلوس وندخن السجاير البحارى الممتازة ونشخط وننطر فى عبيد الله ، ثم اكتشفنا فجأة ان الخمسة جنيه قد طارت وأن علينا ان نعاود السعى من جديد للحصول على مزيد من الاموال .

وخرجنا نسرح فى ميدان الجيزة وعلى محطة ترماى الهرم وفى شارع المدارس وعند كورنيش النيل . . ولكن لاشيء هناك سوى الظلام والهدوء وبعض العساكر الغلابة العائدين الى المعسكرات .

وانتابنا اليأس تماما . . وجلسنا على كورنيش النيل نفكر فى وسيلة للحصول على أموال . . واهتدى غزالى الى الحل ، هتف فى صوت قوى . . الى عم

شنودة . . وزحفت الشلة كلها الى دكان عم شنودة ، وكان الليل قد قارب الانتصاف والبرد يلسع الوجوه والابدان . . وعم شنودة كان يتأهب للانصراف . . وصبيانه منهمكون فى اغلاق الباب . . وعندما رآنا تهللت أساريره ورحب بنا فى حرارة وسألنا فى لهفة عما اذا كان معنا انجليزى آخر يبيع الشاى . . فلما اجبناه بالنفى قال وهو يبتسم ابتسامة رسمية .

طيب خدوا بالكو كويس . . اذا لقيتوا حد تأنى ابقوا هاتوه .

ووقفنا لا نرد ولا نصد ، اتلبخنا لبخة الكلب الاجرب ، ومرت فترة صمت طويلة قبل ان يستأذن عم شنودة للانصراف ، وعندما تأهب ليمشى فعلا ناداه غزالى وقال له فى كلمات محفوظة كأنه ممثل يلقنه ملقن :

الراجل الانجليزى بتاع الشاى زعلان واحنا عاوزين فلوس .

شىء مضحك فعلا أضحك عم شنودة . . فلم تكن هناك علاقة بين زعل الراجل الانجليزى . . واحنا عاوزين فلوس . . ولنفرض ان الرجل الانجليزى زعلان فمادخل الفلوس فى هذا الزعل الانجليزى ؟!

من أجل صفقة الشاى . . وطبطب عم شنودة كل كتف غزالى وقال بصوت ضعيف كأن صاحبه مريض منذ مائة عام ؟!

ـ وحياتك انت ياابنى دى شروه ما يعلم بيها غير ربنا . . واحنا لو بعناها بتمنها يبقى كويس .

ويرطم غزالى بكلام غير مفهوم ، وزام أكثر من واحد منا . . وارتفع الهمس من خلف عم شنودة .

ـ روح انده الانجليزى هنا . .

ـ هات البوليس الحربى لعم شنودة . .

ولكن عم شنودة بدأ ثابتا لم يهتز . . واكتفى بأن ضرب يده فى جيبه ثم دسها فى يد غزالى وفيهاجنيه اخضر جديد مقرقش كأنه رغيف مفقع خارج من الفرن !

ولهفنا الجنيه وعدنا الى شارع الترماى . . الى قهوة مرعى نشرب الشاى والدخان المعسل ونلعب الكومى بالفلوس . . وكما طارت الخمسة جنيهات ضاع الجنيه ايضا . . وعدنا من جديد الى ميدان الجيزة نبحث عن صفقة جديدة نحصل من ورائها على فلوس .

ولكن الحركة كانت ناشفة والانجليز يبدو أنهم ماتوا جميعا فلم يظهر منهم أحد . . لا أحد على الترماى الا عساكر هنود معهم يوستفندى فى مناديل صفراء ، وعساكر من قلب افريقيا ليس معهم شىء ولا يوستفندى حتى . . يبحثون مثلنا عن سبوبه وعن رزقة وعن شىء يخطفونه .

ومرة اخرى عدنا الى عم شنودة . . ومرة اخرى قصصنا عليه نفس القصة ، والراجل الانجليزى الزعلان واحنا عاوزين فلوس . . وبرطمه وغلبة وخوتة دماغ . . ومرة اخرى دس عم شنودة يده فى جيبه وانتزع نصف جنيه باهت ودبلان ولهفنا الخمسين قرشا وذهبنا الى شارع الترماى .

ولكن حظ عم شنودة المهبب ان النص جنيه طار فى نفس الليلة . . وحظه الاشد هبابا ان الانجليز لم يعودوا يظهرون عند شارع الترماى ، وحظه الاغبر أننا عدنا اليه للمرة الثالثة نبلغه زعل الانجليزى الذى بلغ حد العياط . ولكن الذى كان سيبكى حقا هذه المرة هو عم شنودة ، ومع ذلك ضبط اعصابه ونفحنا علبه سجاير كبيرة وربع جنيه .

ولكن الرواية لم تنته ، عدنا من جديد الى دكان عم شنودة نلوح له بالانجليزى الزعلان وصفقة الشاى والفلوس . ولكن عم شنودة الطيب القلب الغلبان تحول الى نمر مفترس هجم علينا كالفهد وانشب مخالبه فى أعناقنا . . وهجم علينا صبيانه بمقشاتهم ومراكيبهم وهات ياضرب على ودنه . . وزاط الشارع كله . . ورحنا نقذف دكانه بالطوب ، فلما فرغ الطوب قذفناه بالتراب ، وانجلت المعركة عن اصابة ثلاثة . . اثنين منا ، وواحد من صفوف الاعداء ، ولكى يسترضينا عم شنودة دفع جنيها وعلبة سجاير وعقدنا معاهدة للصلح ، ومعاهدة من بند واحد خلاصتها اننا لا نعود الى دكان شنودة على الاطلاق . .

ولقد كان عم شنودة مثلا أعلى للرجل العصامى الذى كون نفسه بنفسه . . وصنع مجده من عرقه وعرق الاخرين ، كان يسرح بفانلات وشرابات على شارع الترماى ، ثم استطاع ان يجمع قرشين ويفتتح دكانه فى شارع عباس . . ثم اتسعت الدكان فأصبحت ببابين ، ثم أصبح للدكان مخزن تطور الى مخزنين . . ثم قامت الحرب فأصبح عم شنودة تاجر جملة . . وأصبح يستخدم عشرة عمال اغلبهم من أبناء عمومته . . وكانوا جميعا حفاة عراة تشوهت وجوههم من قلة التغذية ، وكان أبرزهم واحد اسمه خلف ، كان عم شنودة خاله . .

وكان خلف قصيرا دميما كأنه خنفسة يرتدى جلبابا ليس له لون . . فى وجهه دمامل لاتطيب على الاطلاق ، وذات مرة شطح خيال خلف فأراد ان يتزوج ابنة خاله . . وكانت مثله عجفاء كأنها بقرة فى أيام مجاعة . شرشوحة كأنها كلبة صايعة . . قصيرة كأنها نصف امرأة لاتزيد !

ولكن عم شنودة الذى كان يؤمن بأن كل امرىء ينبغى ان يبقى فى المكان الذى حددته له السماء . . رفض هذه الزيجة وطرد خلف شر طردة . . وعاش خلف بقية حياته يتسول فى الجيزة ، وخاله عم شنودة ظل يتضخم حتى أصبح يملك عدة بيوت فى الجيزة وعدة الوف فى البنوك .

وذات مساء هبط علينا الحظ من جديد ونحن جلوس نلعب الكوتشينة فى قهوة مرعى . . دخل علينا عسكرى اسكتلندى وعرض على المعلم مرعى شراء عدة صناديق سكر مكنه من أفخر الانواع . . وتدخلنا فى الامر بسرعة . . فلو أن عم مرعى اشترى السكر لما حصلنا على شىء . . فمرعى فتوة لانستطيع تهويشه . . واذا هوشناه قد يعتدى علينا وقد يضربنا ويطردنا الى الشارع ولذلك أفهمنا عم مرعى ان الرجل الاسكتلندى يريد ان يشرب كأسا من الكونياك . . فاعتذر عم مرعى بالطبع وهز رأسه اسفا . . وسحبنا الاسكتلندى باللورى الى الحاج مصطفى وولده . . تاجر آخر كان فى مواجهة عم شنودة فى ذلك الزمان ! وكان يكتب على اليافطة الحاج مصطفى وولده ثم شطبها فى آخر ايام عمره وكتبها الحاج مصطفى وشركاه !

ولم يعاين الحاج مصطفى ولم يتحر كما فعل عم شنودة . . دفع الفلوس وهو ساكت ونقل الصناديق الى الداخل ونفحنا عشرة جنيهات حتة واحدة . . وكل ذلك وعم شنودة واقف على الرصيف المقابل يتفرج ويجز على الاسنان .

ولكن مر يومان وجاء الحاج مصطفى الى المقهى يبحث عنا ووقف يلطم ويحتج ويصرخ كالنساء وتكشفت الحكاية عن عملية نصب عجيبة المثال ! العسكرى الاسكتلندى نصاب ابن نصابه . . باع صندوق واحد فيه سكر والباقى صناديق فيها تراب . . وعندما سمع عم شنودة بالخبر فرح فى أول الامر . . ثم افتى بعد ذلك بان الحاج مصطفى نصاب وانه افترى هذه الكذبة حتى لا نعود اليه مرة اخرى نطالبه بمزيد من الاموال .

أعجب شىء ان عم شنودة كان اذا مر احدنا عليه عزم فى اصرار ونفحه علبه سجاير وقدم له الشاى على أمل ان يطب فى يدنا عسكرى اخر فنسحبه على دكانه بدلا من دكان الحاج مصطفى الدجال كما كان يحلو لعم شنودة ان يطلق عليه !

وذات مساء اقترح احدنا فكرة جهنمية . . لماذا لاننصب نحن على عم شنودة كما نصب العسكرى الاسكتلندى على الحاج مصطفى الدجال . . ورحنا نرسم الخطة على مهل وبمزاج . . سعد كرنك لأنه أسمر يرتدى زى العساكر الافريكان ونملأ صندوقا كبيرا بالتراب ثم نرش وش الصندق بخمسين قرش شاى ونبيعه لعم شنودة ونضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد . . نحصل على ثمن التراب وعلى العمولة . . ونمرمغ أنف عم شنودة فى التراب .

وارتدى سعد كرنك بدلة الجارحى عسكرى المخابىء . . وحصلنا على الصندوق وهيأناه ووضبناه . وذهبت أنا وغزالى نزف البشرى الى عم شنودة . . وضرب لنا عم شنودة موعدا منح كل منا علبة سجاير كليبر وقطعة حلاوة طحينية بقرش ساغ . . وعندما حان الموعد المحدد . . شال سعد كرنك الصندوق على

قفاه . . وراح يرطن معنا بالافريكى كبروفة لما سوف يجرى فى دكان عم شنودة . .

وعندما وصلنا الدكان كان عم شنودة وحده والظلام يغرق المنطقة كلها . . وعسكرى الدورية يتسكع على الرصيف المقابل . . وحيانا عم شنودة احسن تحية وجلس سعد كرنك بجوار البنك والصندوق الى جواره ، ووقفنا جميعا فى حلقة نرطن مع سعد بالافريكى وعم شنودة يعالج فى حذر شديد فتح صندوق التراب .

وفجأة ، دخل العسكرى علينا وتنحنح ، ونظر بريبة نحو الصندوق ، ورفع بصره الى وجه عم شنودة ، ثم ألقى نظرة فاحصة علينا ثم بدت على وجهه علامات الدهشة والاستغراب عندما شاهد سعد كرنك فى ثياب الافريكى ، وارتبك عم شنودة ، وارتبكنا جميعا ، وهم بعضنا بالجرى ، وكان أكثرنا ارتباكا سعد كرنك الذى راح يرطن بكلمات غير مفهومة بعضها عربى « عسكرى كويس فرى جود » وتوقعنا شرا ، غير أن العسكرى الساذج ضحك فجأة ، وقال وهو يضع يده على صندوق التراب . .

الصندوق ده فيه قتيل والا ايه ؟ . .

(١٢)

وانتابنى رعب قاتل كأن أسدا برز من جوف الغابة وانقض على جسمى من الداخل ، وتجمدت ونشفت ولم يعد فى عروقى قطرة دم . وبلا تفكير ولا تدبير ، ألقيت بنفسى من فوق السور الى بطن النفق ، ونزلت الى عمق عشرة امتار وكأننى عسكرى المانى هبط من جوف طائرته بالبراشوت .

عم شنودة العجوز الحريص عندما هجم العسكرى على الدكان ، **ارتبك** وسابت مفاصله عندما نكش العسكرى بأصابعه داخل الصندوق ، وارتبك سعد كرنك اكثر فراح يرطن بالافريكى والعربى وبكل اللغات الحية والميتة ، وساق العسكرى اللئيم فى الحكاية فخاف عم شنودة ومات فى جلده ، وهب سعد كرنك واقفا وضرب عم شنودة يده فى جيبه وأخرج ورقة جديدة مقرمشة بخمسة جنيهات دسها فى يد سعد الذى يقوم بدور الأفريكى وهرول سعد إلى الخارج والورقة فى يده ، وجرينا جميعا خلفه فى ابتهاج ما أعظمه ! ولكن العسكرى طار خلفنا وشخط شخطة ميرى ناشفة زلزلت الأرض تحت أقدامنا . .

ـ جدع أنت يا أفريكى ، تعالى خد . .

وبالرغم من أن سعد كرنك مفروض فيه انه أفريكى ، ومفروض فى الأفريكى انه لا يعرف اللغة العربية ، ومفروض فى أى أفريكى لا يعرف العربية ألا يفهم عسكرى الدورية ولا يخشاه رغم كل هذه الفروض إلا ان سعد كرنك تسمر مكانه ورد على العسكرى فى خوف شديد . .

ـ أى خدمة يا شاويش . .

وسعد كرنك كان حمارا ولا شك ، ولكن العسكرى كان أحمر ، فشخ بقه ودلدل ودانه وقال كأنه شحات يتسول . .

● ما تشوف سيجاريت أمال . .

تمخض العسكرى فطلب سيجارة ، وسعد كرنك ليس معه شيء .

فاعتذر للعسكرى الشحات ، وانقذ عم شنودة الموقف فجرجر العسكرى من أيده ودس فيها علبة سجاير فيل قبلها شاكرا ، وأشعل لنفسه واحدة ووقف مع عم شنودة يدخن فى انسجام .

وهكذا طارت الخمسة جنيهات على عم شنودة اشترى بها صندوق تراب من سعد كرنك الافريكى .. ودفع فوقها علبة سجاير فيل رشوة لعسكرى الدورية ، ولم يفتح فمه بكلمة بعد ذلك ، أو لعله اشترى سكوتنا وارتاح من خوته دماغنا بهذه الجنيهات الخمسة ، وطار المبلغ منا فى قهوة مرعى وعدنا صياعا من جديد نسرح على شارع الترماى وفى الميدان وعلى شاطىء النهر .

ولما بلغ بنا اليأس غايته زحفنا من جديد الى نفق الهرم نضرب الانجليز والافريكان بالطوب ، فلما اصبح الانجليز اندر من الماس فى شارع الهرم رحنا نضرب المصريين بالطوب ونبطحهم . والعجيب انه لم يكن فى نيتنا ضرب احد على الاطلاق ، ولكن الصدفة الغريبة ساقت فى طريقنا ذات عصرية طرية بموسى أفندى مدرس العربى وكان سمينا كالفيل ، شديد البأس كأنه مصارع فى سيرك الحلو ، وكانت فرصة لننتقم من موسى أفندى ، فرزعناه علقة بالطوب حتى ساح دمه وأصبح صوته لرب السماء ، ومن هنا كانت الحكاية ، حكاية ضرب المصريين بالطوب من فوق نفق الهرم ، ثم كان يوم أغبر شديد الغبار ، لولا حظ من السماء لكنا الان فى عداد الاموات .

مر من تحت نفق الهرم طابور طويل من العساكر اليوغوسلاف ، وكلمناهم فكلمونا وشتمناهم بالعربى فشتمونا .

ولعنوا سنسفيل أبو أجداد أبونا .. وبالعربى برضه ، وبدأت الحرب بالطوب والزلط وقطع الخشب وتفرق الطابور اليوغوسلافى كل فى اتجاه ، وجرح بعضهم وبكى البعض الآخر ، وعندما تأكدنا من فوزنا الساحق عليهم ، انطلقنا نسبق الريح الى قهوة مرعى ، واحتفلنا بانتصارنا ، شربنا الشاى والشيشة ولعبنا الكومى حتى الصباح .

وفى اليوم التالى وفى نفس الميعاد زحفنا إلى نفق الهرم مرة أخرى ، وفى رءوسنا ذكرى انتصارات الأمس على طابور اليوغوسلاف ، وانكفأ كل منا على حافة السور مشعلق كالقرد .. رأسه تطل على بطن النفق ، وقدماه معلقتان فى الهواء ، وإلى جوار كل منا على رخام السور كوم طوب ما أحلاه وزلط مدبب استعدادا للمعارك التى ستنشب عما قليل ..

وانتظرنا دقائق ننتظر فرج الله وعيوننا تمسح بطن النفق بحثا عن أى شبح لتبدأ المعركة ، ولكن مزق الصمت الرهيب الذى يلفنا صوت كرباج ملولو ولا شعر البنت الحليوة ، ثم صرخة حادة أطلقها سعد كرنك ، صرخة لم أسمع مثلها من قبل ، ولم أسمع مثلها بعد ، كأنها صرخة عرسة فى ظلام الليل ..

وانهالت الكرابيج تترى على ظهورنا ورؤوسنا ، كرابيج ليس لها عدد وليس لها حصر وكأنما السماء القاسية قد أمطرت فجأة كرابيج فى أيدى شياطين جبارة أرسلتهم السماء لينتقموا منا .

وفى لحظة تكشف الموقف كله ، الكرابيج فى أيدى العساكر اليوغوسلاف الذين اشتبكنا معهم أمس وهزمناهم ولم أفكر بعد ذلك فى الأمس ، طاش صوابى كأنه عصفور فر فجأة من قفصه ، انتابنى رعب كأن أسدا برز من جوف الغابة وانقض على جسمى من الداخل ، وشعرت بأننى تجمدت ، ونشفت ، ولم يعد فى عروقى قطرة دم واحدة .

وبلا تفكير وبلا تدبير ، ألقيت بنفسي من فوق السور إلى بطن النفق ، ونزلت إلى عمق عشرة أمتار وكأننى عسكرى ألمانى هبط بالبراشوت من جوف طائرته ، وقفزت على الأرض انتطط كأننى كورة كوتش ، وانطلقت أعدو تحت النفق فى اتجاه الهرم وعندما بلغت ترعة سيدى نصر الدين انحرفت يسارا وعبرت شريط السكة الحديد ودخلت الجيزة من الخلف عائدا إلى الحته فى خوف شديد . .

وعند المخبأ جلست وحدى أتسامر مع الجارحى فى انتظار وصول أحد . ولم تمض ساعة حتى حضر غزالى عبدالسلام وطوغان معا ، وعلمت أن سعد كرنك قد وقع أسيرا فى قبضة اليوغوسلاف ، وأنه ظل يجعر ويصرخ بالصوت الحيانى ولا مغيث ، واضطر سعد تحت وطأة التعذيب الشديد أن يرشدهم إلى قهوة مرعى وعندما وصل إلى القهوة استجار بالمعلم مرعى ووقع فى عرضه. وكفتوة وراجل شهم ابن بلد تدخل المعلم مرعى فى الأمر وعندما رفض اليوغوسلاف إطلاق سراح الأسير نشبت بين مرعى واليوغوسلاف معركة ، وتطورت المعركة وانتشرت ، انتصر المصريون للمعلم ، وانتصر كل عساكر الحلفاء اليوغوسلاف ، وهات يا ضرب بالمطاوى وبالكراسى وبالقزايز الفارغة وغرقت الأرض بالدماء ، وارتمت أكثر من جثة فى الشارع ، وأصبحت القهوة طللا يستحق أن يبكى عليه أمرؤ القيس وهو سارح بجمله عبر الصحارى الوسيعة ! . .

وفى الزيطة والزمبليطة التى حدثت ، فر سعد كرنك ناجيا بجلده إلى مكان مجهول ! وشهر كامل ولا أحد منا يهوب نحية الترماى ولا عند شارع الهرم ، عدنا إلى المخبأ نسمر مع الجارحى ونشنع على عبده المكوجى ونناقش المعلم قطب فى مصير الحرب التى تدور على الأبواب .

ثم بدأت الدراسة ، وتفرق كل منا فى اتجاه ، طوغان وغزال دخلا مدرسة التجارة المتوسطة ، عبدالسلام ذهب الى مدرسة الصنايع فى بولاق ، وكمال ذهب إلى السعيدية ، وأنا إلى مدرسة أمير الصعيد الثانوية .

وكان عبدالسلام أشدنا غما وهما ، كانت أمنية حياته أن يسلك طريقه خلال التعليم الثانوى ، ولكن الظروف التعيسة التى هبطت عليهم فجأة حالت دون تحقيق هذه الأمنية ، رغم أنه أشدنا إخلاصا للتعليم ، وأشدنا ذكاء ، وهو ذكاء

خاص ، ذكاء لا يبهرك من أول احتكاك ، ولكنك قد تقضى العمر كله بعد ذلك ولا تتوغل إلى أعماقه .

وجلست فى المدرسة لا أكاد أفهم شيئا مما يدور فى الفصول ، وكانت مدرسة فقيرة وحقيرة على عكس مدرسة الجيزة ذات التاريخ والمجد القديم ، وكانوا إذا أغلقوا الباب خلال النهار شعرت بالضيق وبأننى أختنق ، وكم مرة حاولت الفرار منها ولم أستطع ، فقررت ألا أحضر إليها على الاطلاق ، وكان فى المدرسة مدرس يمت لنا بصلة قرابة ، سرعان ما انتبه إلى غيابى فجاء إلى المنزل يستفسر عن سر الغياب وأكلت علقة ساخنة وعدت إليها فى اليوم التالى ، وأكتفيت بالجلوس أثناء الحصص سارحا فى الجيزة وفى حوارى الجيزة ، فى الموعد الذى حددناه لنلتقى فى المساء نسرح كما نشاء ونمرح كما نريد ، واختلطت فى ذهنى دروس الفرنساوى بالانجليزى ، الجبر بالهندسة فلم أعد أفهم حرفا منها على الاطلاق ، ولكن لحسن الحظ وقع فى يدى فجأة كتاب شعر مقرر علينا ، وفى الكتاب عثرت على صديق آنسنى كثيرا ، وسعدت بصحبته طويلا ، صديق اسمه أبو الطيب المتنبى ، شاعر أحسست أنه صديقى منذ الأزل وتفاهمنا على الفور .

رحت أقرأ قصائده بشغف ، وبحثت عن كتب له أخرى والتهمتها التهاما ، وصرت أترنم بأبياته وبقصائده ، واستخدمت معظمها فى المظاهرات عندما سارت المظاهرات فى القاهرة تهتف بحياة روميل . وبقدر ما أحببت المتنبى بقدر ما كرهت المدرسة ، وكرهت حتى تلاميذها فلم أخرج منها بصديق ، وكرهت مدرسيها فلم أعد أذكر منهم أحدا ، وفاض بى الغلب والنكد فرفضت دخول الامتحان فى آخر العام ، فلم يكن فى رأسى شىء أستطيع أن أذكره فى ورقة الإجابة ! .

وعندما حل الصيف اجتمعت الشلة من جديد وعادت ليالى المخبأ الجميلة ، وسرحنا مرة أخرى على شاطىء النهر نبحث عن عسكرى أفريكى نضربه ، أو عسكرى انجليزى نهبشه ، وعرفنا الطريق إلى السينما وأصبحت هواية ، وأكلت كراسى سينما ستراند من أجسامنا قطعا ومزقت من ملابسنا نتفا .

وفى هذا الصيف انضم إلى الشلة عضوان جديدان ، المغربى ، ورمزى ، وكان الاثنان على طرفى نقيض ، المغربى شهم ابن بلد من النوع الذى ترفضه نفسك وعينك عند النظرة الأولى ، ثم تظل تحبه كلما عرفته ، وقد تمضى السنون الطوال دون أن تتمكن من حصر مزاياه ، ورمزى كان عكسه ، كان وسيما يهتم اهتماما شديدا بمظهره ، ابن مهندس بدأ يزحف نحو المعاش ، يتكلم برقة متناهية وكأنه بنت مانيكان ، ولا يخطو خطوة إلا بحساب وللمصلحة ولغرض فى

نفسه ، ويبتسم ابتسامة صفراء على الدوام ، طموح دون أن تكون لديه المواهب لتحقيق ما يطمح إليه ، سافل إلى أقصى حدود السفالة ، يرتكب أى عمل وكل عمل فى سبيل أن يربح من ورائه أى شيء !..

وكان يبدى اهتماما شديدا بمغامراتنا ، ويبدى استهجانه لنا على ما نصنعه بالعساكر الانجليز والافريكان ، وكان لا يشترك معنا فى غزواتنا ، فقد كانت له شلة أخرى يقضى معها الليل ، ولكن المغربى اندفع معنا إلى آخر المدى ، وأصبح زعيما له مكانه وله باع طويل ، وكان أحيانا يقوم بهجمات خاطفة على شارع الترماى فيغلق باب الشقاوة فى وجوهنا ، وكان تلميذا فى الصنايع ولكنه على عكس عبدالسلام كان زاهدا فى التعليم ، يتطلع إلى وظيفة محدودة ، وكانت له رأس عامل يدوى ونفسية فنان شديد القلق ولكن لا يحمل فى نفسه أى حقد ، وقد يضربك فى أى لحظة من أجل خلاف على مليم ، ثم يستشهد بعد دقائق فى سبيلك !..

وعندما بدأ العام الدراسى الجديد هجرت مدرسة أمير الصعيد الى مدرسة المعهد العلمى الثانوية ، وكانت أكبر وأفخم ، مبانيها تشبه إلى حد ما بناء مدرسة الجيزة القديمة ، كان ذلك فى عام ١٩٤٢ ، وطلائع الألمان تقف عند أبواب الاسكندرية والمظاهرات تهتف فى شوارع القاهرة تقدم يا روميل تأخر يا جونبول .

وانتهزت الفرصة وقفزت على الأعناق أهتف معهم ، وجاءت مناسبة ورقعت قصيدة عظيمة للمتنبى ، وصفق الناس وظللت محمولا على الأعناق من المدرسة إلى مجلس الوزراء ، وعندما بدأت المعارك بيننا وبين بلوكات النظام عند مجلس الوزراء ، قذف بى الذى كنت أجلس فوق عنقه ، والمصيبة أنه قذف بى نحو العساكر فتلقفونى بالأيدى والأرجل وعدت مريضا أزحف على ساقى .

وتعطلت الدراسة أياما ، وساد القاهرة جو من الغموض ، الألمان يتقدمون من الغرب ، والانجليز يفرون بسرعة نحو السودان .. خلت الشوارع من الانجليز تماما ، وهدأت الحركة فى شارع الترماى ، ونشطت فى محطات السكة الحديد ، الانجليز يحملون متاعهم ويرحلون ، ورحل معهم عشرات الألوف من العمال ، ورفض الآخرون فراحوا يتسكعون فى الشوارع ، وارتفعت الأسعار فجأة ، وخلت الأسواق من الطعام ، واختفى العيش فأصبح أعلى من ورق البنكنوت وحصلنا على دقيق من السوق السوداء وحملته أنا بين ذراعى إلى منزلى ولكن قدمى تعثرت فى الطريق فتناثر فى الهواء وعلى الأرض ، وبكيت أنا من شدة الخوف وانحنيت أجمع الدقيق ، فلما بدأ النقص واضحا فى الكيس ، جمعت ترابا وضعته على الدقيق حتى أصبح الوزن مظبوطا .

وعجنوا هذا الدقيق وخبزوه بترابه ، وكان التراب والحصى واضحا تماما لكل من يأكله ، ولكن أحدا لم يفهم السر ، وكانت أمى تصرخ كلما أكلت رغيفا فى احتجاج بالغ :

هوه كل شيء خسر اليومين دول حتى الدقيق ؟ . .

ورغم أنى كنت الوحيد الذى يعلم سر الدقيق إلا أننى أكلته ، فلم يكن فى السوق رغيف عيش واحد نستطيع الحصول عليه .

ومرت أيام عصيبة على القاهرة ، ألوف الصعايدة الذين وقعوا أسرى فى قبضة الألمان ثم تركوهم ليقطعوا الرحلة على الاقدام من طبرق حتى القاهرة احتلوا شوارع المدينة وناموا فى العراء ، وألوف غيرهم من مهاجرى الاسكندرية ومديرية البحيرة ومنطقة القناة زحفوا على القاهرة والجيزة ينامون عشرة فى حجرة واحدة ، يأكلون وجبة ويصومون عشر وجبات ، وأصبحت القاهرة سلطة .

عشرات من النسوة الحرائر فى الطرقات يبحثن عن الطعام بأى ثمن ، وعشرات من الرجال الصياع يبحثون عن العمل فى أى مكان ، والجيش الانجليزى يحرق أوراقه ويحرق مستنداته ، ولا تعليم ولا دياولو ، والغارات اشتدت بصورة عنيفة عن ذى قبل ، والقتلى أصبح عددهم بالمئات ، وأحياء بأكملها تهدمت فى الاسكندرية ، وخلت مدن من سكانها جميعا .

وفى وسط هذا الجو المشحون بالقلق والعذاب والجوع والانحلال ، أعلن الحلفاء أن القاهرة مدينة مفتوحة ، وأستعد الناس للقاء الألمان بالأحضان . . على الحدود ! . .

(١٣)

وبتنا ليلة أخرى أشد سوادا من الليلة الأولى ، وفى الفجر خرجنا نخترق شوارع الاسكندرية الى سيدى جابر الى فيكتوريا إلى الطريق الزراعى فى طريقنا إلى القاهرة سيرا على الأقدام ، ولكن قبل ذلك صممت على الذهاب إلى كورنيش البحر لألقى نظرة على المالح الواسع الذى ليس له قرار وليس له برور !.

أصبحت العلمين على كل لسان . . انقسم المصريون إلى فريقين فريق مع الألمان وحفنه مع الانجليز ، وراح الفريقان يتصارعان فى الشارع كأنهما أنصار الأهلى والزمالك هذه الأيام . .

وكانت أخبار الصحف تؤكد أن الانجليز انتصروا بعون الله ، ولكن أخبار الشارع كانت مع الألمان ، النصر للألمان ، لأن الله مع الاسلام ، والاسلام منصور بإذن الله الذى لا ينام !

ولكنى تركت الألمان والطليان والانجليز والأفريكان وشلة الجيزة وهربت الى الاسكندرية . . كنت بليدا غاية البلادة فى الجبر والهندسة والكيمياء ، وكان مدرس الكيمياء عصبى المزاج ، نحيفا كأنه عصا خيزران ، أصلع رغم أنه لم يتعد الثلاثين ، وكان يقسم فى كل حصة بالأرض والسموات وما بينهما أننى ولد خايب ابن خايب وأن مصيرى على الرصيف مع بتوع السبارس والشيالين ، ونجح الرجل فى تسويد عيشتى وتهبيبها ، وبسببه هربت من المدرسة ومن مصر كلها الى الاسكندرية ، وكانت وقتئذ على مرمى مدافع الألمان . .

ولكنى لم أهرب وحدى ، هربنا ثلاثة . . القبانى وحسن كامل وأنا . وكان القبانى يجاورنى فى الفصل ، ولد سمين الجسم والعقل حلوف الشكل ، مسلوب الارادة ، وكان حسن كامل يجلس خلفى تماما ، وكان ابن ذوات ، مات أبوه وهو فى الخامسة من عمره ، وعاش مع أمه طوال هذه السنين لا يعرف مكانا غير البيت والمدرسة حتى الشارع لم يكن مسموحا له بالنزول فيه .

وكانت مهمتى معهما سهلة للغاية ، اقنعت القبانى وحسن كامل أن الانجليز يطلبون موظفين فى الاسكندرية بمائة جنيه فى الشهر ، عدا سيارة فاخرة لكل موظف ، وحارس

انجليزى برتبة شاويش ، وسكرتيرة حسناء من بنات الـ . . أ . ت . س . ووافق الاثنان فورا على العرض . ولهفنا مصاريف الدراسة وتوليت أنا قيادة القافلة . وقفزنا فى أول قطار ذاهب الى الاسكندرية . . وكان قطارا حقيرا ظل يزحف طوال الليل وفى عز البرد حتى وصل الى الاسكندرية فى الصباح وكانت هذه أول مرة أرى فيها الاسكندرية .

ودهشت لأن الشوارع كانت خالية تقريبا لا أحد يتسكع فى الشارع ولا أحد يتشعبط على سلم الترماى ، الكل هجر الاسكندرية والانجليز الذين ذهبنا لنتوظف عندهم غادروها الى أماكن أكثر أمانا . وكانت مظاهر الخراب والدمار واضحة ، افترست قنابل الألمان والطليان أغلب أحياء الاسكندرية ، ودمرت الميناء تماما !

وعندما جاء الليل أصبحت الاسكندرية مدينة مهجورة ، السواد يطمس معالمها . وصفارات الانذار تعوى فى الجو كأنها كلاب مسعورة ، والكشافات تمسح الفضاء بحثا عن طيارات الأعادى ، وطيارات الأعادى تمسح جو الاسكندرية وتسمع صوتها ولكن لا تراها . .

وفى المساء ذهبنا الى سينما أمام المحطة ، لعل اسمها الكونكورد ولعلها لا تزال مكانها حتى الآن . . وتفرجنا على فيلم « وأخيرا تزوجت » بطولة حسين رياض ، ولكننا لم نستمر حتى النهاية ، فقد انطلقت صفارات الانذار تعوى فجأة ، وانطلق الناس هاربين من السينما كأنهم حيوانات .

كاسرة أحاطت بهم نار اشتعلت فجأة فى الغابة . داس الرجال الكواسر علينا ودعكونا على بلاط السينما . وعندما خرجنا كان كل منا يعانى من الرضوض والكسور ، فرحنا نزحف على مهل فى طريقنا إلى المخبأ . ولم تنته الغارة إلا فى الصباح .

وخرجنا من المخبأ إلى حى كوم بكير ، وكان الحى دائما فى المساء يشغى بالحركة ويضيق بالسكان ، فلما انتهت غارة الأمس كان الحى قد تحول إلى تل من التراب وعشرات من الجثث تتناثر هنا وهناك .

وعلى أنقاض حى كوم بكير تأكد لنا أنه لا وظائف هناك ولا مائة جنيه ، ولكن غلب أزلى وصياعة ما لها مثيل . . وطاف بنفسى خاطر غريب ، وتذكرت مدرس الكيمياء وارتعد بدنى ، فقد خشيت أن تتحقق أمنياته ، وأن انتهى فعلا مع القبانى وحسن كامل إلى شيال على رصيف محطة الاسكندرية !.

وبتنا ليلة أخرى أسود من الليلة الأولى ، وفى الفجر خرجنا نخترق شوارع الاسكندرية الى سيدى جابر الى فيكتوريا الى الطريق الزراعى فى طريقنا الى القاهرة سيرا على الاقدام . ولكن قبل ذلك صممت على الذهاب الى كورنيش البحر لألقى نظرة على المالح الواسع الذى ليس له قرار !

وعندما وقفت على سور الكورنيش رحت أدقق النظر داخل البحر الواسع لألقى نظرة على بلاد بره التى تقع على الشاطىء الآخر . ولقد قيل لى وقتئذ أنى شاهدتها فعلا ، وأن الغبش الذى كان فى داخل البحر ما هو إلا مدائن عظيمة . فعندئذ اطمأن قلبى وواصلت السير فى طريق القاهرة .

كنت أنا قائد القافلة وكنت مسئولا عن تقدير الموقف ، وكقائد عظيم قدرت أن المسافة بين الاسكندرية والقاهرة وقد قطعها القطار فى خمس ساعات ، فهى لابد تستغرق عشر ساعات على الأقدام ، وبما أننا بدأنا الرحلة فى السابعة صباحا سنصل إلى القاهرة فى الخامسة مساء ، وقد نتأخر قليلا فنصل فى السابعة ، المهم أننا سنقضى النهار فى الطريق إليها .

وحصرت النقود التى معنا ولم تكن الا قروشا قليلة ، واشترينا خمسة أرغفة وقطعة جبن وعلبة سجاير كليبر ، وشمال يمين كالعساكر الأسرى إلى القاهرة . وعندما جاء الظهر لم نكن قد ابتعدنا عن الاسكندرية أكثر من خمس كيلو مترات ، وجلسنا على جانب الطريق الزراعى نأكل ، وإلتهمنا كل ما معنا من طعام وأشعلنا السجاير وانبسطنا ثم قمنا من جديد وليس معنا شىء إلا سجارتين وربطة كتب وأوهام عن موقع القاهرة على الخريطة .

وهبط المساء علينا والمطر ينهمر غزيرا فوق رؤوسنا ، وأنوار كفر الدوار لم تلح فى الأفق بعد ، والدنيا ظلام فى ظلام ، ومطر فى مطر وبرد أزلى يخرم العظام .

والجوع يفرى بطوننا ، وعليه السجاير أصبحت ذكرى طيبة . . فرحنا نفتش عن أعقاب طويلة بين المطر والوحل فى الطريق المظلم الخالى . فجأة صاح القبانى صيحة مدوية :

ـ غيط فجل يا جدعان . .

ولم نسأل ولم نعاين . بل هجمنا فجأة على الفجل ، وكان المطر قد أحاله إلى بركة من الطين ، وانغرزت فيه أرجلنا حتى الركب . . ورحنا نأكل من الفجل فى شراهة ولا شراهة المجنون . وعندما شبعنا وامتلأنا ، اكتشفنا أن الذى فى الغيط ليس فجلا ولكنه لفت مر المذاق .

وانكفأ كل منا على وجهه فى ركن . ورحنا نتقيأ جماعة وكأننا جماعة من أنصار بوذا نؤدى طقوسا دينية لروح الإله العظيم . وفجأة توقفت سيارة نقل على جانب الطريق الزراعى الى دمنهور . . ولم نتفق ولم نفكر ، انطلقنا نعدو خلف السيارة ، وتشعبط العبد لله والقبانى فى المؤخرة ، وفشل حسن كامل فراح يصرخ ونحن نبتعد مع السيارة حتى اختفت صرخاته فى الفضاء ، واختلطت بنباح الكلاب السارحة فى المزارع البعيدة !.

ولكن بعد فترة ليست قصيرة ، شعرت بإحدى يدى الرفيعتين كالمكرونة الاسباكيتى تتخاذلان ، وودت أن ألقى بنفسى من العربة المنطلقة على الطريق ولكننى خفت أن أسقط وأموت . . وعندما طاف خاطر الموت بنفسى تشبثت بالسيارة كأنى علقة ، بينما راح القبانى يصرخ ويتوسل إلى السائق أن يتوقف . . ولكن السائق الذى كان يحكم إغلاق الكابينة ويلف حول أذنيه كوفيه من الصوف لم يسمع شيئا ، وأخيرا سقط القبانى على الأرض كأنه طوبة ضخمة تدحرجت من فوق تل مرتفع .

وظل القبانى يتدحرج حتى سقط فى الترعة . . وعندئذ صرخ صرخة رهيبة اخترقت أذنى رغم دوشة السيارة النقل التى اتشعلق فيا كأننى غراب البين !

ورغم كل المحاولات التى بذلتها لحفظ توازنى إلا أننى سقطت فى النهاية ، سقطت على كف يدى اليمنى فانقصعت والتوى أصبعى وظل يؤلمنى إلى النهاية . ولكن رغم الألم الشديد نهضت وسرت فى الطريق نحو الاسكندرية بحثا عن القبانى وحسن كامل .

وبعد فترة طويلة عثرت على القبانى يقف على شاطىء الترعة يتلاعب كأنه عصفورة سقطت فى طشت غسيل . ثم جاء حسن كامل بعد ذلك أنيقا رشيقا لم ينله شىء إلا الخوف الذى انتابه من الوحدة فى الليل على الطريق المهجور !.

ورحنا نسعى من جديد إلى كفر الدوار . ودخلناها فى التاسعة مساء ، وكانت لا تزال عامرة . . السوق يشغى بالناس ، ورائحة الطعمية تجذبنا لها ، ورائحة

السمك المشوى تسكرنا . وبعنا ربطة الكتب واشترينا سمكا وسجاير وأكلنا ودخنا وانبسطنا وجلسنا على رصيف المحطة ننتظر قطار المساء . .

وعندما جاء القطار جلسنا فى الدرجة الأولى وانجعصنا . . لا تذاكر معنا ولا نقود ، ولكن لا حيلة أمامنا إلا الركوب وليكن ما يكون . . وجاء الكمسارى والمفتش معا . . واعتذرنا عن عدم وجود تذاكر ، ثم اعتذرنا عن عدم وجود نقود ، وشدنا الكمسارى من ملابسنا إلى الدرجة الثالثة ، واستدعى عسكرى بوليس حمش ليقوم بحراستنا ، ولكن العمال الصعايدة فى القطار تدخلوا فى الأمر ، صدقوا الكذبة التى أطلقناها وهى أننا كنا فى رحلة ثم تخلفنا وضللنا الطريق ولم يكن معنا نقود ولا تذاكر وأبرزنا كارنيهات المدرسة ، فانسبكت القصة واقترح أحدهم أن يساهم كل راكب بقرش للحصول على تذاكر لنا ، وفعلا أصبحنا ركابا ومعنا تذاكر .

وعندما وصل القطار الى القاهرة ، كان ضوء النهار يشمل الكون ، والدنيا برد وملابسنا أصبحت متسخة ، والجوع يفرى أمعاءنا ، والنوم يكبس علينا ، وطرابيشنا انضربت وانخبطت كأنها أكواز صفيح ، منظر يغم النفس والقلب معا . ولكن إلى أين . لا نستطيع أن نذهب إلى البيوت ولا نستطيع الذهاب إلى المدرسة . .

ولكن لا بأس من الذهاب إلى المدرسة لنحصل على سلفة من بعض التلاميذ . . ووقفنا ننتظر على الناصية حتى جاء التلاميذ ، واكتشفنا أن فعلتنا المهببة قد عرفت ، وأن الاشاعات التى انطلقت أكدت أننا غرقنا فى مياه النيل ، وبعضها أكد أننا هربنا إلى فلسطين . وعلمنا أن الناظر خطب فى التلاميذ مندداً بفعلتنا متوعدا التلاميذ بالموت اذا سلكوا طريقنا . . وعندما دق جرس المدرسة كنا قد حصلنا على بريزة ، وبدأنا الصياعة من جديد !.

وعندما جاء الليل انهار حسن كامل تماما ، بكى فى ميدان العتبة ، ثم انسحب وهو يبكى فى طريقه الى المنزل . وسرحت مع القبانى فى شوارع القاهرة حتى الصباح . .

لم يعد أمامنا سبيل ، انهار القبانى وانهرت أنا الآخر ، ورحت أفكر بعمق فى وسيلة لنهرب من هذا المأزق الخطير . ولم يكن أمامى إلا أمين المغربى ، ووقفت أمام باب مدرسة الصنايع فى بولاق انتظر قدومه ، وعندما رآنى عانقنى طويلا ، وأبلغنى أن أمى تشرف على الموت من الغم الشديد ، ثم زوغ من المدرسة من أجلنا ، ودعانا إلى الافطار . . ثم اكتشفنا ونحن نأكل فى المطعم انه لا يملك

ثمن الافطار . وبعد أن شبعنا وحمدنا الله ، أمرنا بالخروج من المطعم وتركناه بمحض ارادته يواجه مصيره مع المعلم المكلبظ ، الذى كان يحتل باب الدكان ويشرف على الزبائن من فوق بنك عال كأنه قلعة تشرف على الطريق .

وجاءنا المغربى بعد قليل عند شاطئ النهر . وسحب القبانى إلى بيته ، وفى المساء كنت أنام فى بيتى ، ولم يجرؤ أحد من أهلى على ضربى ، فقد كانت شروط الصلح التى عقدها المغربى معهم ، أننى سأنتحر إذا وجهت إلى إهانة ، أو وجه إلى اللوم ، وقضيت الليل كله أفكر فى المغامرة التى انتهت بالفشل ، ولكنها منحتنى الثقة المطلقة فى قدرتى على المغامرة فى مستقبل الأيام !.

(١٤)

ان فى مدرسة المعهد العلمى الثانوية ، أوباش كثيرون مثلى ، أولاد بلد طيبون وغلابا وفنانون حقيقيون يفهمون النكتة ويتذوقون الحياة بنفسية فنان . ولقد احببتهم جميعا وكونت شلة جديدة منهم ، وكان ابرزهم جميعا عبدالسلام ، كان سمينا وطويلا ومتزوجا من امرأتين وله ثلاثة أولاد بعضهم فى المدارس الابتدائية رغم أن عبدالسلام نفسه كان فى السنة الثانية رابع الثانوية .

حادث الهرب بعد ذلك بشهور ، أقنعت القبانى وحسن كامل مرة أخرى
تكرر بالسفر الى السويس للعمل فى وظيفة مدير للجيش الانجليزى بمرتب
ألف جنيه كل شهر وسيارة وزوجة حلوة من بنات التايمز . وهبش كل
منا مصاريف الدراسة ،وركبنا القطار إلى السويس وحدث لنا فى السويس نفس
الشيء الذى حدث لنا فى الاسكندرية . . ضاعت النقود ، ثم بعنا الكتب ، ثم
أخذناها موتو رجل الى القاهرة ، وسقطنا نحن الثلاثة على بعد ٣٠ كيلو مترا من
السويس مصابين بضربة شمس ، ونقلنا رجل طيب من عمال الدريسة إلى بيته ،
ثم جاء البوليس ونقلنا إلى السويس . ثم رحلتنا محافظة السويس تحت الحراسة
إلى محافظة القاهرة ، وسلمتنا المحافظة إلى أولياء أمورنا . . بايصال استلام . .
وكأننا طرود فى البوستة . .

وأقيمت احتفالات الضرب فى كل مكان ، ضرب فى البيت وضرب فى
المدرسة وضرب فى الشارع . فقد توليت أنا ضرب حسن كامل والقبانى أمام باب
المدرسة لأنهما شهدا معا فى كل تحقيق أننى أنا المسئول عن عملية الهرب .

وعدت أجتر أيامى الرتيبة فى المدرسة ونقصت الشلة واحدا ، فقد خرج
حسن كامل من مدرسة المعهد العلمى إلى مدرسة أخرى فى العباسية ، وبقى
القبانى حتى نهاية العام ثم خرج منها الى جراج يشتغل فيه باليومية ، وحزنت جدا
لمصير القبانى فقد كان رغم كل شيء طيب القلب ، ورأيته بعد ذلك فى مناسبات
كثيرة متباعدة ، وكان فى كل مرة يبدو أكبر سنا وأكثر هما مما كان .

ولكنه رغم كل شيء استطاع أن يتعود الظروف التعيسة التى أحاطت به
وحاصرته زمنا طويلا وكافح ببسالة حتى تخرج من الجامعة وسافر الى الخارج ثم
عاد مهندسا كبيرا يساهم الآن بدور فعال فى نهضة مصر .

كان فى مدرسة المعهد العلمى أوباش كثيرون مثلى ، أولاد بلد طيبون وغلابا

وفنانون حقيقيون يفهمون النكتة ويتذوقون الحياة بنفسية فنان ، ولقد أحببتهم جميعا وكونت شلة جديدة منهم وكان أبرزهم عبدالسلام وكان سمينا وطويلا ومتزوجا من امرأتين وله ثلاثة أولاد بعضهم فى المدارس الابتدائية رغم أن عبدالسلام نفسه كان فى السنة الثانية رابع الثانوية !.

وكان عبدالسلام صاحب مزاج يكسب ثلاثة جنيهات كل يوم ينفقهاعلى زوجاته وعلى سهراته ، فقد كان يملك محل حانوتى فى السيدة زينب ، وكان يباشر عمله فى نقل الموتى بعد الخروج من المدرسة ، فيخلع زى التلاميذ ويرتدى جبة وقفطانا وعمامة ويربط وسطه بحزام شاهى لامع معتبر . وكان عبدالسلام أغنانا وأكبرنا سنا ، ولذلك عقدنا له القيادة والزعامة .

ولم يكن عبدالسلام شريرا على الاطلاق ، كان يحب الحياة رغم أنه يعمل فى المهنة الوحيدة التى يخشاها كل الأحياء ، وكان له خاطر كبير عند المدرسين لانه كان من جيلهم ، لذلك كان له الحق دوما فى مغادرة الفصل فى أى لحظة ، وكان فى وسع أى طالب يقع فى براثن مدرس مجنون أن يستجير بعبدالسلام . وكان عبدالسلام يجيره وينقذه ويحميه !.

ولد آخر كان له نفوذ فى الشلة اسمه حامد واسم الدلع حنبلة ، وكان يسكن فى حىّ القلعة وفى شارع سوق السلاح بالذات ، وكان حريف كوتشينة يستطيع أن يتحدى أى لعيب ويهزمه ، كان ذكاؤه كله مركزا فى لعبة الكومى ، وكان لديه القدرة على معرفة نوع الورق الذى فى يد الخصم ، وكان يتمتع بأعصاب باردة يستخدمها فى اغاظة الخصم ونرفزته ، وكثيرا ما كانت تنشب المعارك بينه وبين اللعيبة ، وكثيرا ما كان ينهزم فى هذه المعارك ، فقدكان تكوينه الجسمانى لا يساعده على الصمود .

وكان فى المدرسة ظابط ألعاب رياضية اسمه محمد صدقى ، كان له شقيق ممثل مشهور فى تلك الأيام اسمه حسين صدقى ، وكان محمد صدقى يصادق الطلبة البارزين فى المدرسة ويسهر معهم ، وكان يصطفى عبدالسلام ويسهر معه دائما ويقترض منه أحيانا .

وعندما انتج شقيقه فيلما عن الاطفال المشردين اسمه الابرياء استعان بنا محمد صدقى ككومبارسْ فى الفيلم . وفرحت جدا عندما اجروا لى اختبارا فى التصوير ، وتضاعفت فرحتى عندما نجحت فى الاختبار .

ورغم أنى كنت أبرز الجميع فى التمثيل إلا أننى لم اشترك فى الفيلم ، ففى يوم التصوير أصر المخرج على أن أنشل محفظة كومبارس آخر وأفر هاربا من البلاتوه ، ولكننى صممت على الكلام أثناء عملية النشل ، وأعيد تصوير المنظر عشرين مرة ، وفى آخر مرة شاطنى المخرج بقدمه خارج الاستوديو .

وباظت مشاريعى فى السينما ، فعدت أجتر كتب الشعر وألتهم المجلات التى استطيع شراءها بالقروش القليلة التى كنت اتناولها احيانا من أبى . وأدهشتنى قصص الحرب وأحببتها حبا لا مزيد عليه . . وتعقبت كل الافلام التى انتجت عن معارك الحرب العالمية الثانية ، ولكن الفيلم الذى اعجبنى جدا كان أسمه « يحيا فيللا » ببطولة ولاس بيرى ، وكان يحكى قصة زعيم مكسيكى بدأ حياته لصا يهجم على القرى يخطف منها ويقتل ملاك الأرض الكبار ويوزع أراضيهم على الفلاحين ، واستطاع اللص الشريف فيللا أن يجمع حوله جيشا كبيرا هز به أعمدة الاقطاع هزا فى بلاده .

ثم فجأة نشبت الثورة فى المكسيك . وأستدعاه قائد الثورة ولبى فيللا الدعوة ، وخلال المقابلة عرض عليه الزعيم أن ينضم للثورة فوافق فيللا على الفور ، ولكن زعيم الثورة اشترط عليه الا يقتل أحدا الا فى معركة ، ورفض فيللا الشرط ، ثم قبل الانضمام فى النهاية ، واستطاع وحده مع رجاله أن يدخل العاصمة وأن يقضى على نظام الحكم الاقطاعى فى المكسيك ، ولكن الاقطاعيين الكبار تآمروا عليه واستطاعوا نفيه من البلاد ، وضاع فيللا فى احدى مدن ولاية كاليفورنيا يسكر طول الليل ويهيم على وجهه فى الحوارى والشوارع يزوم كأنه جائع !

ثم سمع ذات مساء وهو يسكر ويترنح فى بار مهجور أن الثورة قد نشبت مرة أخرى فى بلاده ، وعلى ظهر جواد هزيل راح يرمح فيللا طول الليل حتى اخترق حدود المكسيك ، وسرعان ما قام جيش الانتقام ليثأر تحت قيادة فيللا من سنوات الذل والجوع ، واستطاع فيللا أن يعود الى الحكم وأن يوزع الارض على الفلاحين ، ثم تربص له اقطاعى قديم فى الطريق وأطلق عليه النار . . ومات فيللا بعد أن دخل التاريخ من أوسع باب !.

دخلت هذا الفيلم أربع مرات فى أربعة أيام متتالية ، وعندما عرض مرة أخرى بعد سبعة عشر عاما دخلته مرة أخرى ، ورغم مرور الزمن الطويل الا اننى أحسست بنفس النشوة التى شعرت بها عندما رأيته أول مرة !.

وفجأة توقفت عن القراءة ، وتركت هواية السينما وانطلقت الى آفاق أخرى بعيدة كل البعد عن الفن والثقافة . . فقد تصادقت جدا مع حنبلة وأحببته ، وكنت أجلس الى جواره فى مقهى بعابدين أرقبه وهو يلعب الكوتشينة بمهارة وأستاذية وكأنه طيار يقود طائرة ركاب ضخمة عبر المحيط . وتزاورنا فى بيوتنا ، وأحببته أكثر فقد كان يعيش فى ظروف مشابهة للظروف التى أعيش فيها ، مع فارق واحد هو أنه كان يتيم الأب ، وكان يرعاه أخ أكبر شديد البؤس كل لذته فى الحياة أن يشكو من البؤس الذى يطحنه فى الحياة !.

ومن خلال جلستى فى القهوة الى جوار حنبلة تعلمت الكومى ، وبرعت فيها جدا ليس لانى العب بنظام وألعب بطريقة وبخطة ، ولكن لأننى ألعب بمغامرة وألعب دون اهتمام . ورغم عدم اهتمامى أثناء اللعب فقد كنت أشعر بحسرة شديدة اذا انهزمت ، وكنت أشعر بفرحة أشد اذا هزمت ، وكان الخصم المهزوم يلاقى الأمرين بعد اللعب ، فقد كنت أظل أهرج عليه وأجعله سخرية العالمين . وكثيرا ما كان ينفجر الخصم المهزوم فيضربنى ، لكن رغم الضرب الكثير الذى لقيته ، الا أننى لم أكف أبدا عن هذه العادة اللذيذة وهى اغاظة الغير .

ولم أكن أشعر بحقد أو كراهية نحو هذا الذى أغيظه ، ولكننى كنت أغيظه والسلام ، الغيظ من أجل الغيظ ليس ألا !.

المهم اننا هجرنا القهوة بعد ذلك لنشتغل شغلة جديدة اخترعها حنبلة ، شغلة تعتمد على الذكاء والفهلوة وتفتيح العين . وتدر ربحا وفيرا ممكن أن يرتفع الى مائة جنيه أو أكثر كل شهر . وكانت الشغلة بسيطة ، يقف حنبلة فى شارع ابراهيم باشا فيقطع الطريق على العساكر الانجليز الذين فى طريقهم الى المتحف الصحى . وبنعومة وبلطافة يقول حنبلة للعساكر الانجليز .

ـ المتحف مغلق يا سيدى .

ويتوقف الانجليز على الفور ، بعضهم يضرب الأرض بقدميه وبعضهم يشد شعر رأسه من الغيظ . ولكن حنبلة يشير عليهم أن يذهبوا إلى متحف آخر ، متحف الملك ، ولم يكن هناك وجود لشىء اسمه متحف الملك ، ولكن حنبلة كان يسحبهم الى جامع الرفاعى حيث مقابر بعض ملوك أسرة محمد على ، وعلى باب المسجد تبدأ مهمتى الحقيقية ، يعتذر حنبلة عن دخول المسجد لأنه تلميذ ، ثم يقدمنى لهم على اننى ترجمان مهمتى شرح محتويات متحف الملك ، وكنت وقتئذ ببنطلون شورت وطربوش أثرى وأبدوا فى الرابعة عشرة ، ومع ذلك كان العساكر الانجليز يصدقون أننى فعلا . . ترجمان !.

١٥

ولكن معوض وأولاده رغم المكاسب والفلوس والبدل الشيك التى ظهرت عليهم ، انتهى نهاية مفزعة ، فقد مات ولده الكبير محترقا ، وانتحر الآخر تحت كوبرى قصر النيل ، وبقى عم معوض نفسه يبيع التماثيل للخواجات حتى فقد بصره .. ثم قذف بتماثيله وارتدى عمة خضراء ورفع عصا طويلة وعاش أيامه الأخيرة إلى جوار ضريح سيدنا الحسين .

طويلا فى هذه الشغلة المريحة اللذيذة . . شغلة الترجمان ! تدخل
لم استمر النحس وطردنى منها شر طردة ، فعدت إلى مدرسة المعهد العلمى
أحضر الدروس أحيانا ، وأقود المظاهرات إلى ميدان قصر النيل
أحيانا ، وأحن دائما إلى ميدان عابدين وجامع السلطان حسن والعساكر الانجليز
الذين يدفعون ورقا أخضر بمآذن ، والشيخ كراميش الذى يلهف نصف الدخل
وهو جالس فى أمان الله يسبح بحمد الله الذى خلق السماء بغير عمد ترونها !
ولقد كان الشيخ كراميش شخصية من شخصيات ذلك العصر . ولو أنه جاء
فى عصر آخر ، عصر على بك الكبير مثلا ، فلربما استطاع أن يكون أميرا للحج
أو مفتيا للدولة ، أو أبا روحيا لجميع مماليك الأرض .

كان سمينا وقصيرا كأنه قدرة فول ، أحمر الوجه كأنه ديك رومى منفوخ ،
أنيق الملبس كأنه سينمائى مشهور ، وكان يختار ألوانا فاقعة لاتليق بمركزه ،
ولاتليق بشيخوخته ، جبة خضراء فسدق وقفطان مقلم بأقلام ذهبية . . وحزام
مشجر . . وحذاء بمزيكة ، وعمامة كأنها برنيطة من برانيط جزيرة كورسيكا !

ولم يكن الشيخ كراميش شيخا ، ولم يكن من رجال الدين ، فقد بدأ حياته
خادما فى مسجد السلطان حسن ، ثم استطاع بذكائه أن يصل إلى منصب شيخ
خدامين المسجد ، وخلع الشبشب والجلباب وارتدى زى المشايخ ، وجلس على
باب الجامع يسب ويشتم ويصدر الأوامر وكأنه قائد جيش الخوارج ، وكان يرابط
على باب الجامع طول النهار ، فاذا هبط المساء انطلق فى تاكسى إلى منزل فى
شارع ابراهيم باشا يلعب القمار ويشرب الويسكى مع عدد من الاصدقاء . كان
أبرزهم شيخ خدامين الملك فاروق ، ومن هذا الخدام الملكى كان الشيخ
كراميش يستمد نفوذه .

ولما كان أعزب لم يتزوج فقد كان لديه الوقت اللازم لمسامرته ومنافقته . فلما قامت الحرب وهجم العساكر الانجليز على حى القلعة للتفرج على قلعة صلاح الدين وجامع الرفاعى وجامع السلطان حسن ، اقتحم الشيخ كراميش الميدان بقوة ، وفرض أتاوة على التراجمة والتلامذة والعساكر الانجليز . وفرض شروطه على الجميع حتى بلغت الاتاوة المفروضة خمسين فى المائة من الايراد .

ونادرا ماكان أحد من الناس يرفع صوته بالاحتجاج ضد الشيخ كراميش . فقد كان واسع النفوذ فى دوائر البوليس ، وكان مأمور قسم الخليفة تحت أمره فى كل حين ، حتى أنه خصص للشيخ كراميش عسكرى خاصا يحرسه ويضرب له مائة تعظيم سلام كل يوم ! وبعد ثلاث سنوات من الحرب كان الشيخ كراميش يملك ثلاثة منازل فى القاهرة ، وعشرين فدانا فى قريته وعدة ألوف من الجنيهات فى البنك .

وعندما رأيت وجهه أول مرة . . كانت معركة العلمين قد انتهت ، وتراجع روميل إلى شمال أفريقيا وأصبح العساكر الانجليز على قفا من يشيل ، وأصبحت الفلوس كالرز ، وانسعر الشيخ كراميش أكثر ، وأصبح أكثر شياكة وأكثر عياقة عن ذى قبل .

ولم تكد تبدأ السنة الرابعة من سنوات الحرب ، حتى حلق الشيخ كراميش ذقنه ، ثم هجر زى المشايخ فى نهاية الحرب وارتدى البدلة والكرافتة السولكا ، ثم رشح نفسه بعد ذلك وعلى مبادىء الهيئة السعدية !

ولقد فقدت شغلتى كترجمان بسبب الشيخ كراميش ، فعندما ذهبت أول مرة إلى حى القلعة لم أكن أعرف شيئا عن نفوذ الشيخ أو حقيقته . ولقد كان على كل ولد ترجمان يمر أمام الشيخ كراميش أن يضرب له تعظيم سلام أمام العساكر الانجليز ثم يهجم على يده ويقبلها ، ثم يدعو العساكر الانجليز إلى تقبيل يد الشيخ باعتباره شيخ مشايخ القاهرة . .

ولما كنت جاهلا بهذه المراسيم ، فقد مررت أمام الشيخ وفى يدى سيجارة ، وألقيت عليه السلام دون اهتمام ، وبدلا من أن يبادلنى السلام ، بصق فى وجهى بشدة ، واغتظت جدا فشتمته . فخلع حذاءه وأطلقه نحوى فأصاب جنديا انجليزيا غلبانا كان يطمع فى الفرجة على آثار الاقدمين ، وعندئذ عرفت قدر الشيخ وعرفت مقامه العالى الذى هو أعلى من مئذنة جامع القلعة .

ولكن الشيخ لم يغفر لى هذه الزلة أبدا ، وكان قلبه مفعما بكراهيتى رغم فروض الطاعة والولاء التى قدمتها لفضيلته ، ولقد حانت أمام الشيخ فرصة ذهبية لقطع رقبتى ، تكاتف الجميع نحوى باعتبارى غريبا على الشغلة ، ولست من أبناء القلعة ، فكيف لولد من الجيزة أن يقتحم القلعة وأن يزاحم أبناءها فى مهنتهم ؟!

وعارض حنبلة هذا الاتجاه فى بداية الامر ، ولكنه لم يلبث أن تخلى هو الاخر عنى وانضم اليهم ولم أهتم كثيرا لموقفهم منى ، فلقد كان فى وسعى أن أعمل فى هذا الميدان وحدى ، ولكن الشيخ كراميش تصدى للعبد لله . . ونجح فى قطع عيشى !

ولقد أثرت هذه الفترة فى نفسى تأثيرا كبيرا رغم قصر المدة ، وعرفت خلالها نماذج من الرجال لايمكن أن تنسى !

محمد أفندى حسن الذى كان يتولى منصب رئيس قلم فى مصلحة السكة الحديد ، والذى كان يحضر إلى باب الجامع عصر كل يوم ببدلة أنيقة ونظارة ثمينة ، وكان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ويدخن سجايركرافن ويأكل فى المساء سلطانية زبادى ثم يشرب شيشة قبل أن يذهب لينام ! .

وعبدالخالق أفندى الذى أقتحم الميدان ومعه جميع أبنائه ، انتزعهم الرجل المجنون من فصول الدراسة وقذف بهم إلى الشارع وراء العساكر الانجليز ، واستطاع أن يجمع ثروة هائلة بعد الحرب ولكنها تبددت بعد ذلك . . وتبددت الأسرة نفسها ، وضاع عم عبدالخالق وأولاده .

وولد آخر اسمه محمد ونسيت اسمه الآخر . . كان يشتغل شركة مع ولد وسيم وطويل وعريض ويتكلم الانجليزية كأنه أستاذ فى جامعة لندن ، وكان اسمه مهدى . . وكان محمد طالبا فى مدرسة المعهد العلمى ثم هجرها إلى الأبد ، وخرج من الحرب بعشرين ألف جنيه . وعدة بيوت ، ومحل تجارة ، وضاع شريكه الآخر على موائد القمار ، ثم ضاع إلى الأبد بعد ذلك ، فقد عقله ولايزال حيا إلى الآن حبيس جدران مستشفى الخانكة !

ولكن أغربهم جميعا كان عم معوض . . ولم يكن عم معوض ترجمانا ولم يكن يعرف حرفا من الانجليزية ، ولكنه كان يسترزق من الشغلة ببيع عدة تماثيل من الحجارة باعتبارها أثرية ومن صنع فرعون نفسه ! وكان له ولدان لم يلبثا أن نزلا معه إلى الشارع ، ثم امتد نفوذهما إلى أبعد مدى ، فأصبحا تراجمة رغم جهلهما الشديد باللغة الانجليزية ! وبالرغم من ذلك كان حمدان معوض يربح كل يوم عشرة جنيهات من مهنة الترجمة ، كيف ؟ لاتدرى ، ولكنها معجزة الشعب المصرى الذى عاش رغم كل شىء ، وربح فرد فيه اسمه حمدان بن معوض عدة ألوف من الجنيهات دون أن يكون على دراية بأى حرف من حروف اللغة الانجليزية .

ولكن معوض وأولاده رغم المكاسب والفلوس والبدل الشيك التى ظهرت عليهم ، انتهى نهاية مفزعة ، فقد مات ولده الكبير محترقا ، وانتحر الآخر تحت كوبرى قصر النيل ، وبقى عم معوض نفسه يبيع التماثيل للخواجات حتى فقد

بصره . . ثم قذف بتماثيله وارتدى عمة خضراء ورفع عصا طويلة وعاش أيامه الأخيرة إلى جوار ضريح سيدنا الحسين !

وعندما عدت إلى مدرسة المعهد العلمى الثانوية كان كل شيء قد تغير ، حتى أنا تغيرت ، أصبحت أكثر نضجا وأكثر حزنا عن ذى قبل . . أصبحت حزينا لا أدرى سببا لحزنى . . مغموما بلا مناسبة . . قلقا لا أستقر . . مذعورا لا أطمئن ! . . لقد بلغت الآن السادسة عشرة من عمرى ، أصدقاء الطفولة وزملاء المدرسة أصبحوا الآن طلبة فى الجامعة ، وبعضهم يصبح له هيئة الرجال ، شوارب متدلية وعضلات منفوخة . وأنا لا أزال مكانى ، محلك سر ، خلفا در ، لا جديد فى كيانى .

وفى تلك الفترة القلقة العصيبة وقع الشيء الذى أثر فى مجرى حياتى ، فلقد أنكرنى زملاء المدرسة ، وصدنى أصدقاء الطفولة ، ولم يكن سهلا أن اختار أصدقاء جددا ، زملاء الدراسة كانوا زملاء فصول فقط ، ويفصل بينى وبينهم بحور من التجربة والخبرة . . وأعوام من العمر كذلك . . لذلك تعلمت الانطواء والخجل ، وانعزلت عن الجميع ورحت أقرأ فى نهم بالغ ، قرأت دواوين البحترى وأبى نواس والفرزدق وجرير وبعض قصائد ابن الرومى وديوان أبى تمام . ثم قرأت تاريخ الفراعنة ولكنه لم يرق لى كثيرا ، أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، مفتاح ومتفتاح ، ورع ، وخفرع ، وأخناتون ، ومنقرع ، وأشياء تلخبط العقل ، وتبرجل المخ .

نحيت تاريخ الفراعنة جانبا ، وقرأت التاريخ الاسلامى ، وأحسست أننى أجد نفسى أخيرا . . ورحت أتعقب كل كتاب صدر عن تاريخ الاسلام ، وعندما وصلت إلى عصر المماليك . . وقفت أرقص من الفرحة ومن اللذة ومن الانسجام . . فعندما تقرأ كتابا عن عصر المماليك تشعر أنك تشاهد فيلما سينمائيا بالألوان . قصصا حقيقية ولكن لايمكن لأى مؤلف مهما كان أن يتخيل حدوث مثلها ، خدام اشتراه سيده فى تركيا ، ثم هرب منه بعد ذلك إلى بلاد مجهولة ، وجاء هذا الخدام إلى مصر ، وأصبح مملوكا وشيخا للمماليك ، ثم انتخبوه ذات ليلة لعزل نائب الخليفة وتولى جميع سلطاته ، وعندما دخل عليه الولد المملوك ، اكتشف انه هو نفسه الخدام الذى اشتراه ذات يوم فى تركيا ، واكتشف الخدام الذى ذهب ليتولى الحكم أن الحاكم المعزول هو سيده القديم الذى هرب من بيته على ضفاف البوسفور ذات مساء منذ عشرين عاما لا تزيد !

الخدام إياه كان اسمه على بك الكبير ، والسيد المعزول كان اسمه محمد باشا عبدالله ، وقصة خدام آخر كان شديد الذكاء ، شديد الطموح ، شديد النهم وكان اسمه بوشناق ، وكان خداما فى قصر على بك الكبير . . ثم اختلف معه فهرب من قصر سيده إلى الاسكندرية . . ثم ظهر بعد سبع سنوات . وأين ؟

واليا على عكا وباسم آخر ، أحمد باشا الجزار ! كيف حدث هذا ، كيف استطاع خدام مفلس هارب فى جنح الليل أن يثب على كرسى الحكم ، لا أحد يدرى ولا أحد يعرف إلا علام الغيوب !

والولد الارمنى الذى كان فى العشرين من عمره والذى أستدعاه السلطان لتولى الوزارة فى مصر ، فاذا به يحكم مصر إلى أن بلغ الثمانين . . ثم ترك فيها أعجب نظام ظهر فى التاريخ ، اذ جعل منصب الوزارة وراثيا وعرش الملك يجلس عليه من يشاء .

قصص خرافية نعم ، ولكنها حدثت كما رويتها لك الآن بالتمام والكمال ، ولقد عشت فيها واستغرقتنى تماما ، ولكن السياسة قاتلها الله جذبتنى مرة أخرى . انتزعتنى من وحدتى وعزلتى وجرجرتنى إلى الشارع وإلى الناس مرة أخرى ، فقد سقطت وزارة الوفد وأجريت انتخابات عامة جريدة ، ولم تكن هذه انتخابات على الاطلاق ، كانت فرضا وتعينا ، وأسماء تريدها السراى بالذات .

ودخلت الأحزاب المؤتلفة ، الحزب السعدى والدستورى والكتلة معا ، وانسحب حزب الوفد ، وكان مدير وناظر وصاحب مدرسة المعهد العلمى قد قرر فجأة الاشتغال بالسياسة ، فرشح نفسه على مبادىء الحزب السعدى . . وفى دائرة السيدة زينب ، حيث مدرسته وتلاميذه ! وفى نفس الدائرة نزل عشرة مرشحين آخرين كل منهم يقف وراءه حزب وجريدة .
ولم يكن ناظر المدرسة سعديا ولكنه فقط مرشح على مبادىء الحزب السعدى ، حركة قرعة لكى يكسب جانب الحكومة مع انه لو رشح نفسه على مبادىء أى حاجة وأى حد لنجح . فقد كان يملك ألف تلميذ بألف أسرة بثلاثة آلاف ناخب على الأقل . .

وعندما بدأت المعركة الانتخابية ، كنت هناك لجنة من خمسة أشخاص لادارة المعركة الانتخابية وضابط ألعاب المدرسة وكان يدعى ابراهيم الحريرى ، وكان شهما ومحبوبا ويجيد فن الاتصال بالجماهير . على عكس الضابط القديم محمد صدقى ، الذى اعتزل العمل فى المدرسة ، وفتح قهوة فى حى شبرا ، أما أعضاء اللجنة الآخرون فكانوا من طلبة المدرسة ، وكان العبد لله خامسهم .

ولم تكن مهمتنا سلهة ويسيرة ، فقد كان علينا أن نحارب الحكومة والبوليس وأنصار المرشحين العشرة ، ودخلنا معارك شديدة ولا معارك روميل ، وواجهتنا صعاب ماأعجبها وأغربها ، ولكن أغربها جميعا أننا اجتمعنا نحن الخمسة أعضاء اللجنة الانتخابية ذات مساء .. فى السجن !!

١٦

حجرة واحدة مستطيلة سبعة أمتار فى ثلاثة ، بداخلها حجرة أخرى ، أرضها مثل جدرانها مثل سقفها ، ليس لرائحتها مثيل إلا فى بيت الأسد فى حديقة الحيوان ، عندما انفتح الباب حسبت أن قبرا قديما يحوى ألف جثة قد انفتح بعد الف عام . . راودنى وأنا اجتاز عتبة الباب اننى عالم أثرى عظيم وقعت بالصدفة على قبر من قبور فرعون العظيم .

تكن معركة الانتخابات سهلة ، ولم تكن بسيطة . . اكتشفنا بعد فوات الأوان
لم أننا داخل معركة حامية تحتاج إلى لجنة من ألف رجل وليس خمسة رجال بينهم العبد لله . وكنت وقتئذ فى السادسة عشرة لا أزيد . . وبالرغم من ذلك استطعنا أن ننظم صفوفنا وأن نخوض المعركة بثلاثة آلاف تلميذ لم يكن أحد منهم يعلم شيئا . مما يدور حوله . .

ولقد كانت مهمتى هى احداث شغب فى المدرسة كل صباح ، وشد التلامذة فى مظاهرة بدون سبب وجرجرتهم إلى الشارع . . والحق أقول أننى كنت دائما أجد سببا لكل مظاهرة ، باشا عيان ، وزير مسافر ، مدير عام أحيل إلى المعاش ، المهم أننى كنت أجد سببا دائما لكل مظاهرة ، وعندما يدق جرس الصباح كنت أفقع بالصوت ، يحيا مش عارف مين باشا . . أو يسقط مش عارف مين بك ، أو نموت ويحيا أى حد وأى واحد .

ويفرح التلاميذ بالطبع ، فالمظاهرة معناها التزويغ ومعناها الفرار من سجن المدرسة الكئيب ، ويخرج التلامذة خلفى إلى الشارع . . والذين يتمردون على المظاهرة يتكفل حضرة الضابط بهم فيطيح فيهم بعصاه ، وعندما تصبح المظاهرة ألسطة ونكون قد وصلنا الى ميدان السيدة زينب . . يختفى اسم الباشا أو البيه الذى خرجت المظاهرة من أجله ، ويرتفع اسم الرجل الحقيقى الذى خرجت المظاهرة بسببه ، مصطفى بك . . مصطفى بك . . تنتخبوا مين مصطفى بك . . ابن الدايرة مصطفى بك . . والناس الذين على الصفين يحيون المظاهرة . . والذين يرفضون واقعة أبوهم سودة ، الضرب بالطوب هو أهون شىء والجرجرة من القفا فى الشارع هى المصير .

وهكذا أصبحت تلميذا فى المدرسة لا أدفع مصاريف ، تلميذا عمدة يستطيع أن يحرك المدرسة بصرخة ، ويشعل النار فيها بقصيدة ، وأصبحت أشهر من تمثال لاظوغلى فى حى السيدة زينب .

وكان ابراهيم الحريرى ضابط المدرسة رجلا شهما وفتوة الحتة . وكان جريئا ولا أسد جائع ، عايقا غاية العياقة . . له شلة فى السيدة نصفها فتوات والنصف الآخر تلامذة مضى عليهم حين من الدهر وهم تلامذة ، وفى آخر الليل ، بعد الهتاف والزعيق كانت الشلة تجتمع فى شارع سلامة ، وكانت سهراتنا تمتد حتى الفجر . . ثم يذهب كل منا لينام قليلا قبل أن نستيقظ لنعاود الصراخ من جديد !

وذات مساء كانت الشلة قاعدة على كراسى فوق الرصيف حين مرت من أمامنا مظاهرة صغيرة عدد أفرادها لا يتجاوز العشرة ، وكانت المظاهرة تهتف بأصوات مسلوخة وابن الدايرة سلامة بك . . هوه لوحده . . سلامة بك ، وعندما أصبحت المظاهرة أمامنا قذف ابراهيم نحوها بكوب ماء كان فى يده واحتج البعض ، وزاطط المظاهرة ، وكلمة من الشلة . . واذا بابراهيم الحريرى يقذف نحوها بكرسى قش أطاح بأربعة من المتظاهرين ، وانطلق الباقون يسابقون الريح .

ولكن ابراهيم لم ترقه نهاية المباراة ، فنهض يختال كالوزة ، وهجم على الأربعة وهات ياضرب أزلى . . بالادمغة وبالركب وبالشلاليت ، وضرب من كل نوع وعلى كل لون . وجذبتنا حلاوة المعركة فانطلقنا خلف ابراهيم نضرب معه ونصرخ وكأننا عساكر انجليز مجانين فى معركة متوحشة ضد أفراد قبيلة غلبانة فى مجاهل افريقيا . . وفجأة . . حدث ما لم يكن فى الحسبان ، طب علينا البوكس وبه عشرة عساكر وضابط معه مسدس حشرونا جميعا فى البوكس إلى قسم السيدة زينب .

تلك الليلة التى لاأنساها كانت آخر ليالى معركة الانتخابات ، والذين ضربناهم كانوا أنصار مرشح الحكومة ، واكتشفنا أمام المأمور أن لكل منا دوسيها أمامه . . ولكل منا تاريخ حافل يحفظه . وبعد سين وجيم ولماضه شدنا العسكرى من الاقافى جمع قفا وألقى بنا فى سجن القسم .

وعلى طول ما عشت فى السيدة زينب ، وعلى كثرة ما مررت أمام القسم لم أكن أتخيل أن ثمة مكانا مثل هذا على ظهر الأرض . . حجرة واحدة مستطيلة سبعة أمتار فى ثلاثة ، بداخلها حجرة أخرى ، أرضها مثل جدرانها مثل سقفها ، ليس لرائحتها مثيل إلا فى بيت الأسد فى حديقة الحيوان .

عندما انفتح الباب حسبت أن قبرا قديما يحوى ألف جثة قد انفتح بعد ألف عام . . وراودنى وأنا اجتاز عتبة الباب أننى عالم أثرى عظيم وقعت بالصدفة على قبر من قبور فرعون العظيم ، ولقد عثرت فى الداخل على جثث فعلا ولكن لاتزال على قيد الحياة . . كان فى السجن أكثر من عشرين رجلا وصبيا وطفلا ناموا جميعا على البلاط فى البرد وليس على أجسامهم شىء يذكر .

وعندما انتبهوا إلى وجودنا استيقظوا جميعا ، وراحوا ينظرون نحونا نظرات مستكينة غلبانة ولكنها رغم غلبها لاتخلو من الحدة . . ولقد بدت الدهشة فى وجوه البعض كأنما أدهشهم أن يقتحم قبرهم هذا خمسة من الأفندية . . وجلسنا معا فى ركن واحد ندخن ، وألف عين ممدودة نحونا ، وألف يد ترتعش تكاد تمتد تطلب نفسا ! !

وبعد فترة صمت ليست طويلة وليست قصيرة ، زحف أحدهم نحونا ، زحف كما يزحف التمساح وفمه مفتوح . وعيناه تبرقان فى الظلام وأسنانه الحادة المسنونة تبرق مثل عينيه . . وجلس على رجليه ويديه كأنه كلب مقرفص وسأل فى لهجة باردة ساخرة متحدية :

ـ الأفندية جايين فى إيه ؟

وهممت بأن أجيبه لولا أن ابراهيم ضربه على الفور قلما رنانا على صدغه ، وعندما احتج الرجل الذى انقلب على جنبه من شدة القلم ، كان ابراهيم قد ناوله أكثر من عشرة أقلام حامية شديدة . . وتوقعت معركة رهيبة بين الرجلين . ولكن الذى حدث كان عكس الذى توقعته . انسحب الرجل المضروب فى هدوء وجلس فى نفس المكان الذى جاء منه صامتا لا يتحرك . واستأنف ابراهيم حديثه معنا كأن شيئا لم يحدث . . وعندما انتهى من تدخين السيجارة أشار للرجل المضروب فجاء ممتثلا ، ومد له يده بعقب السيجارة فقبله ممتنا . . ثم زحف من جديد وجلس يدخن فى هدوء ويده الأخرى تتحسس خده !

وعندما زحف الليل علينا وتوقفت حركة الميدان إلا من تاكسى يعبره بسرعة ، أو صرخة مجذوب أكل البرد بدنه ، أحسست أنا بالخوف ينهش قلبى ، فهذه أول مرة فى حياتى أجلس فى مكانى مجبرا لا أستطيع فراقه ، وهذا الذى نحن فيه ليس مكانا ، وليس سجنا . . إنه أوسخ من ذلك وأحقر .

وجلست بينى وبين نفسى أفكر بعمق فى هذا المكان الغريب الذى ساقتنا الصدفة اليه ، هذا الاختراع البشرى المدمر للنفس الانسانية ، من الذى اخترعه ، من كان أول انسان على ظهر على الأرض أقام سجنا ليضع فيه إنسانا آخر . أغلق عليه الباب بالمفتاح ثم انطلق هو إلى الشارع يمرح ويلعب ؟ لابد أنه فكر فى علاج للجريمة فاخترع السجن . . ولكن ها هو ذا السجن وها هم المساجين ، والجريمة مع ذلك لم تتوقف . . لافى خارج السجن ولا فى داخله . . لقد حدثت أمام عينى داخل السجن جريمة بعد منتصف الليل بقليل ، انفتح الباب ودخل الشاويش ونادى على ولد من الداخل . . وهب الولد مذعورا يسحب هلاهيله ووثب نحو الباب فى سرعة محمومة . قال الشاويش ومفاتيح الباب لها رنين بين أصابعه .

أبوك أهه ياواد .. عاوز منه حاجة .. ورد الولد وهو يتثاءب .

خليه يقعد معايا شوية ربنا يخليك ، ونظر الشاويش إلى الولد ونظر إلى الوالد ومد يده فدس فيها الوالد شيئا ، ثم سمح له بالدخول وأغلق الباب بالمفتاح ثم اختفى فى الخارج . ودخل الوالد فألقى علينا السلام ، وجلس إلى جوار ولده وفتح حجره وأخرج منها لفافة ، لم يكن باللفافة سوى فطيرة وعلبة سجاير وشويه برتقال ، ورفض الولد أن يأكل وقذف بالأكل بعيدا ثم أشعل سيجارة وراح يدخن ..

وانقض المساجين على لفافة الطعام فنهشوها عن آخرها ، ثم مدوا أيديهم واستولوا على السجاير ودخنوها ، كما زحف الرجل الذى ضربه ابراهيم نحونا .. زحف هو نفسه هذه المرة لكن نحو الولد المسجون والوالد .. وجلس إلى جوار الوالد صامتا لا يتكلم .. ثم فجاة ندت صرخة كثيبة من الوالد . وأمسك بذراع الرجل الزاحف وصاح : حرامى .. حرامى . ولكن الرجل الآخر لم يهتم . مد يده فكتم بها أنفاسه ثم طرحه أرضا ونام عليه .. وأخرج من جيبه شفرة حلاقة وراح يمزق بها وجه الرجل المسكين . وعندما احتج ابنه جرجره الاولاد الآخرون بعيدا وانهالوا عليه ضربا ..

ولم يحتج أحد من الجالسين إلا ابراهيم .. نهض أخيرا وخلص الرجل الغلبان من براثن الرجل المجرم .. ثم صرخ يطلب النجدة .. وانفتح باب السجن وجاء ضابط .. وعندما اكتشف أن دم الرجل الزائر سائح كأنه ماء اندلق من قربه .. ألقى القبض على شاويش السجن واتصل بالنيابة ..

كانت فرصة ذهبية لنقضى الليل فى الخارج ، فعندما جاءت النيابة استدعتنا للشهادة ، ورفض الجميع الشهادة .. وقلنا نحن كل شىء .. من أول الباب ماانفتح حتى إرتكاب الجريمة ، وجاءت عربة الاسعاف شالت الرجل الغلبان إلى القصر العينى ، ونقل الرجل المجرم إلى حجرة اخرى تحت الحراسة ، وجاء شاويش آخر استلم السجن ، وبات الشاويش الاصلى مع المجرم تحت الحراسة !!

جريمة منكرة نعم ، ولكن الجريمة الأشد منها هى موقف الشاويش حارس السجن والمجرمون حين فتح الباب ومد يده للرجل الذى جاء للزيارة ..

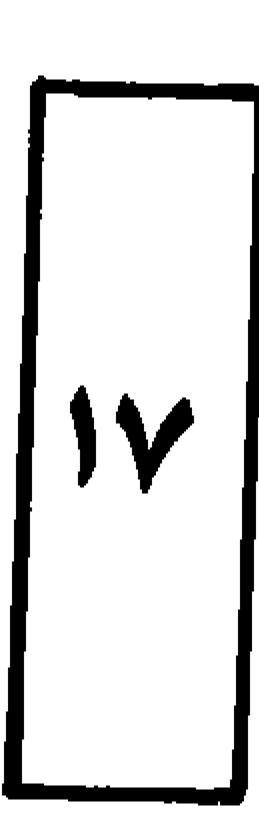
الغرض .. جلسنا نتسامر طول الليل مع الضابط .. عندما عرف قصتنا .. وعرف أننا تلامذة ومدرسون رفض أن يعيدنا إلى السجن بعد أن أدلينا بالشهادة . وفى الصبح انصرف الضابط وعدنا نحن إلى السجن .. بعد أن ساح مخى من شدة التفكير فى وسيلة للهرب من هذا الحجر اللعين .

ومضى النهار بطيئا كأنه ألف عام . كان ذلك اليوم هو يوم الانتخابات ، وكانت المظاهرات الصاخبة تطوف حول القسم هاتفة بحياة المرشحين ، فاذا جاءت مظاهرة تهتف بحياة الناظر هللنا لها من خلف الأسوار السميكة .

وكان ابراهيم قد أرسل فى طلب الناظر ولكنه لم يظهر قط . وجاء الليل مرة أخرى . . ومع الليل اشتدت كآبتى واشتد غمى ! وعندما انتصف الليل بكيت كما تبكى النساء . . ولكن ابراهيم نهرنى بشدة وامرنى بالتزام الصم ، فصمت . ولكن الدموع التى كانت تتدفق من عينى انزلقت إلى الداخل وسدت حنجرتى . . وأحسست باختناق بالغ وبأننى لا أقوى على التنفس . . وبأننى سأموت . . وغفوت قليلا ولكن عندما فتحت عينى اكتشفت أن النهار قد لاح من خلف طاقة السجن الضيقة . . ثم أخذ النهار فى الانتشار ، ومع النهار عاد الميدان إلى صخبه وإلى مرحه . . وباب السجن لا يكف طول النهار . . ينفتح ليدخل عشرة ، وينفتح أخرى ليخرج خمسة ، الوارد شغال طول النهار . . دنيا عجيبة ليس لها أول ولا آخر . . وعالم بأسره له ملوكه وباشواته ورعاياه !

وعند الظهر قدر لنا أن نخرج من السجن . . فقد جاء الناظر ومعه المأمور يسير فى أدب بالغ . . وعرفنا عندئذ أن الناظر فاز فى الانتخابات وأصبح نائب الدايرة . وها هو ذا المأمور الذى كان يبدو كالأسد منذ يومين أصبح كالقطة هذه اللحظة . واعتذر لنا المأمور وصافح كلا منا وظهره مقوس كيد عصا من الكريز . . وخرجنا من السجن إلى عزبة الناظر لنطوف بالحى كله وعشرات الألوف من الناس تهتف بحياتنا وكأننا سعد باشا وصحبه وقد عادوا أخيرا من المنفى .

لقد فات أكثر من أربعين عاما على هذه الحادثة.. ولكن أبدا لا أمر على قسم السيدة زينب إلا واقشعر بدنى . . وقفز إلى ذهنى منظر الرجل المجرم وهو يزحف كالتمساح مرة ليتلقى صفعات ابراهيم ، ومرة أخرى ليمزق بشفرة حلاقة جلد رجل آخر أشد منه غلبا !!



وخلال هذه الفترة بدأت أكتب شعرا ، ولكنه كان شعرا ركيكا وسخيفا وحقيرا غاية الحقارة ، ثم بدأت أمارس الزجل وكتبت عدة صور زجلية استطعت ان أنشر بعضها فى مجلة أغلقت أبوابها بعد ذلك ، ولعل السبب يرجع إلى سوء الزجل الذى أتحفت به قراءها . ثم بدأت أكتب قصصا ، وكانت هى الأخرى كالزجل ، قصص هايفة هيافة لدرجة أنها تصلح كلها أفلاما مصرية .

الآن نجح ناظر المدرسة وأصبح نائبا فى البرلمان ، وعدت أنا تلميذا فى المدرسة ، ولكن تلميذ شاب قبل الأوان ، سبعة عشر عاما مضروبة فى ألف عام ، خضت خلالها فى وحل الحياة وفى باركيه الحياة أيضا .

وتركت التجربة فى نفسى مرارة ، غير أن هذه المرارة كانت من العمق بحيث جعلتنى أسخر ولا أحقد ، وجعلت أصدقائى دائما أكبر منى سنا ، فقد عدت إلى المدرسة ولى صديقان : ابراهيم الحريرى ضابط الألعاب ، ومدرس علوم رياضية إسمه عباس أفندى .

ولقد كان عباس أفندى نموذجا لابن البلد الأصيل شكلا وموضوعا ، كان يحضر إلى المدرسة راكبا « موتوسيكل » كالحا قديما فيبدو وهو منطلق به كأنه تاجر لبن جملة . وكان رغم مظهره العام شديد العناية بدروسه ، عالما بمادته ! وكان من الممكن أن يكون عالما فى الرياضة لولا انهماكه الشديد فى اعطاء الدروس الخصوصية ، ومن اجل ذلك كان يطوف النهار كله بأنحاء القاهرة ليجمع فى نهاية الشهر عدة جنيهات تكفل له هذه الحياة التى يحياها . والتى يعشقها على نحو ما . .

وخلال هذه الفترة بدأت أكتب شعرا ، ولكنه كان شعرا ركيكا وسخيفا وحقيرا غاية الحقارة ، ثم بدأت أمارس الزجل وكتبت عدة صور زجلية استطعت أن أنشر بعضها فى مجلة أغلقت أبوابها بعد ذلك . . ولعل السبب يرجع إلى سوء الزجل الذى اتحفت به قراءها . . ثم بدأت أكتب قصصا ، وكانت هى الاخرى كالزجل ، قصص هايفة لدرجة أنها تصلح كلها أفلاما مصرية !

ثم بدأت أكتب مقالات على طريقة أستاذنا المرحوم زكى مبارك ، ومزقت معظمها ، ولكن واحدة منها أعجبتنى فقررت نشرها ، وكنت كل يوم وأنا فى طريقى إلى المدرسة أمر على جريدة الكتلة ، وفكرت فى نشر المقال فى الكتلة . . وذهبت إلى الكتلة وقابلت سكرتير التحرير ، وكان شابا سمينا يتفجر صحة وحيوية وعافية كأنه طور . وسلمته المقال واحترمنى وقام واقفا وصافحنى ولكن المقال لم ينشر خلال اسبوع كامل .

وبدأت أتردد عليه أسأله عن المقال ، وأخذ احترامه يتناقص بالنسبة لى . . وأخيرا طردنى شر طردة ، فلما رفضت الخروج هبدنى شلوتا ألقى بى إلى الخارج ، ولم أجد شيئا أرد به عليه إلا الزلط المكوم عند شريط السكة الحديد فرحت أقذف به دار الجريدة . .

وفجأة وصل رئيس التحرير وشاهد المنظر بنفسه . . نزل من السيارة شاب وسيم كأنه طائر ، يرتدى بدلة شركسكين بيضاء كأنه حمامة سلام ، ونادانى فرفضت تلبية ندائه ، فاذا كان سكرتير التحرير قد ضربنى علقة وهبدنى بالشلوط ، فما بالك برئيس التحرير ؟! ولكنه تقدم نحوى وقال فى ود بالغ :

- إيه الحكاية يابنى . .

وكانت كلمة إبنى هى المرهم الذى داوى جروحى ، فتقدمت وحكيت له الحكاية وسحبنى من يدى إلى مكتبه ، وعندما سألنى عن إسمى راح يستخدمه كلما خاطبنى مسبوقا بلقب أستاذ . . وانتفخت كالديك الرومى وقد خلت أن الدنيا كلها دانت لشخصى ، ومن هذا اللقاء الذى حدث بينى وبين أستاذى أحمد قاسم جودة وأنا أعبده . . واحترمه ، وأشعر نحوه بصلة لاحد لها ، فأنا أحيانا أنسى الاساءة ، ولكن أبدا لا أنسى المعروف . .

ولقد كان معروف قاسم جودة عميقا للغاية ، فقد رد إلى عتبارى ومنحنى ثقة مطلقة ، فقد نشر مقالى فى اليوم التالى ، ثم نشر لى بعد ذلك مقالات كثيرة ولم أكن عندئذ قد بلغت العشرين بعد .

ولكن يوم أن ظهر لى أول مقال كان يوما له العجب ، عرفت فى المساء أن مقالى سينشر . . ولم أنم طول الليل ، ورابطت عند محطة السكة الحديد حتى حضرت الجرائد بعد منتصف الليل بقليل . واشتريت نسخة وأخذتها كعابى حتى منزلى فى الجيزة ! وخلال هذه الرحلة الطويلة رحت أقرأ مقالى حتى قرأته ألف مرة ، ثم أنظر فى إسمى مذهولا وكأننى قائد جيش صليبى فتح عكا !

وفى الصباح كنت أحمل نسخة الجريدة مزهوا وأركب الترام منفوخا وأنظر للجميع فى استعلاء . . فقد استقر فى خاطرى أن مصر كلها تعرفنى . . وأن

الدنيا كلها مشغولة اليوم بمقالى ، وأننى مشهور أشهر من غاندى ، وأن على الناس أن يفسحوا لى الطريق .

ولقد هممت أكثر من مرة أن أخبر جارى فى الترام أننى صاحب المقال المنشور فى الكتلة ، وهممت والله أن أخبر كمسارى الترام وأن أقول له فى خيلاء :

ـ تذكرة لحد جريدة الكتلة لانى أنا اللى كاتب المقال ده .

ولكن لا أدرى كيف استطعت أن أستقر فى الترام حتى بلغت المحطة . ودخلت المدرسة دخول الفاتحين ، ولكن فرحة ماتمت ، عندما انتصف النهار انبطيت على وكستى التقيلة . فقد اكتشفت ان مقالى لم يقرأه احد ، والجريدة نفسها لاتوزع الا رقما أقل بكثير من عدد اصدقائى ، واكتشفت اننى شخصيا أكثر انتشارا منها ومع ذلك لم أيأس ، رحت أقرأ أنا المقال لكل من أقابله . . وكانت كل أحاديثى خلال اسبوع كامل بعد نشر المقال كلها تدور وتلف حول المقال ، فإذا انحرف الحديث بعيدا عن المقال وحكايته ، أدرته أنا بمهارة كالبحار العظيم قبطان أعالى البحار نحو المقال والجريدة . اذا كان الحديث يدور حول الطماطم مثلا ، تدخلت أنا فى الحديث بأستاذية وبعد حديث قصير عن الطماطم « والله الطماطم دى موضوع شائك برضه ، أنا لازم أكتب عنها مقال ، أنا مقالى اللى فات كان على كيت وكيت » وعدوك ولا ساعة كاملة تكفينى بعد ذلك للحديث عن المقال .

وفى هذه الفترة كان طوغان قد حمل صوره الكاريكاتورية وراح يسرح بها على الجرايد عارضا خدماته . . وبالمجان ! ولكن طوغان كان صغيرا إلى الحد الذى لم يعرف إلى أين يتجه ، كان يغادر الجيزة كل يوم بعد انتهاء المدرسة وأنا معه ، ويطوف بشارع محمد على ، عارضا صوره على مجلات الخميس . . والارشاد . . والهدايا المحمدية . . وتنشيط الامل . . والسحاب . . والرغائب ، والسماح ، ولم تكن هذه جرائد ولا يحزنون . ولكنهم رغم ذلك كانوا يتفرجون على الصور ثم يبدون أسفهم كأصحاب الجرائد الحقيقيين . ويعتذرون لعدم وجود وظائف خالية ! !

ولقد حفيت أنا وطوغان خلال هذه الرحلات الجهنمية . وخلال رحلة من هذه الرحلات قمنا بها ذات يوم قائظ شديد الحر ، شديد الغم ، توقفنا عند قصر محمد على باشا . . ثم جلسنا على الرصيف ثم خلعنا أحذيتنا . . ثم بكينا من شدة التعب والقهر . . ولكن أغرب شيء اننى عندما خلعت حذائى لم أجد شرابى . . ومع أننى لم أخلع الجزمة على الإطلاق . . فقدت شرابى مع أننى ارتديته والجزمة فوقه . . كيف ؟ معجزة ؟ . . نعم . . ولكن الأشد إعجازا منها اننى كنت أرتدى هذا الشراب ، رغم انه لم يكن شرابا على الإطلاق !

وفى رحلة أخرى فى سبيل النشر كنت مع عبدالسلام ووصلنا إلى شارع فاروق وكان به دار كبرى تصدر عدة مجلات أسبوعية ، وبعد أن عرضت عليهم مقالاتى ورفضوها عدنا مشيا نحو العتبة . . وفى العتبة خطر لنا أن نلهو قليلا . فدخلنا سوق الكانتو وفاصلنا بياع طرابيش كان يقف كفرانا يسب الدين والدنيا . . ولما سألناه عن ثمن الطربوش قال خمسين قرشا ، وخفضت أنا المبلغ إلى خمسة وعشرين قرشا لكى يرفض فنمشى ولكن الرجل وافق على الفور . . وأسقط فى يدنا ، فخفضت المبلغ مرة أخرى إلى ريال ولكنه وافق ، ونزلت بالمبلغ إلى عشرة قروش ووافق ونزلت إلى خمسة قروش ووافق . . وعندما ضحكت للمقلب الذى شربناه لطشنى قلما فانطلقت أعدو ومن خلفى عبدالسلام . . واستطاع أن يلحق بعبد المنعم ولم يخلصه إلا عسكرى مرور طيب كان مارا فى الطريق .

وعدنا إلى الجيزة نتشعبط على سلم الترمايات ، وبلغ عدد الترمايات التى تشعبطنا عليها ثلاثين ترمايا . . وفى آخر ترماى ضربنا واحد صعيدى علقة لا أنساها . فقد كان يقف على السلم يبيع أمواس حلاقة ونظارات . . وعندما هجمنا على السلم لنتشعبط دفعناه فسقط ومعه أمواسه . . ولكنه ترك كل شىء مبعثرا فى الشارع وانطلق يعدو خلفنا حتى أمسك بنا ورننا علقة طيبة للغاية .

ومع هذا لم نكف عن الشعبطة . . ولم نتوقف عن التريقة على الناس !

وفى تلك السنة وقعت فى أول حب . . كانت تسكن فى حارتنا وكانت جميلة وناضجة كالتفاحة ، وتصغرنى بأربع سنوات ، وكنت أدهن شعرى من أجلها بالصابون . . وأكوى البدلة تحت المرتبة . . وأمر من أمامها عشرين مرة كل يوم . . وكلما واجهتها غضضت بصرى واكتفيت بمسح شعرى براحة يدى وكانت هى الأخرى تفعل الشىء ذاته . . وأحببتها عاما كاملا على هذا النحو ثم تجرأت أخيرا وألقيت عليها تحية الصباح . . فبصقت نحوى وقالت ياسم . . ولكنها بعد ذلك ردت على التحية . . ثم هجرتها لأننى اكتشفت أنها خلال فترة حبنا « المقدسة » كانت على علاقة بعشرة شبان ! وهجرتها إلى خدامة كانت تعمل لدى أحد المستشارين العظام . . وكانت تصر دائما على انها ابنة المستشار . .

وكانت تحكى قصصا عن المستشار باعتباره والدها الكريم . . وكيف انه ناشف ودوغرى ولايحب المشى العوج أبدا . . ومع أنها كاذبة إلا اننى كنت أتظاهر بتصديقها . . وكنت أصحبها أثناء رحلاتها المتكررة إلى السوق تشترى خضارا وسلطة وخبزا . . وكانت تصر على أننى أشبه محسن سرحان مع أنه لايوجد أى وجه للشبه بينى وبينه . . فقد كانت سينمائية حالمة ، كل قيمها

ومعتقداتها اكتسبتها من مقاعد الترسو وهى تتفرج على أفلامنا المصرية . .
وكانت أحيانا تهتف فجأة وتصرخ فى وجهى وأنا أحاول تقبيلها على باب بيتها :
ـ أنا خايفة ياحودة . .
وكنت أهتز من شدة الخوف وأتساءل مذعورا .
ـ إيه المستشار جى . .
ولكنها كانت ترد بدلع كدلع بطلات السينما . .
ـ لا يا حودة . . أنا خايفة على حبى !
ـ حبك ؟ ! إلهى يخيبك ويخيب حبك يا تفيدة سيبتى ركبى ووقعتى قلبى فى رجلى . .
ولقد انتهت قصة حبى معها نهاية واقعيه . . غضب عليها المستشار يوما فطردها من الخدمة . . وذهبت المسكينة ولم أرها بعد ذلك أبدا . .

١٨

وقابلت عددا كبيرا من الملوك ورؤساء الجمهوريات ، وصادقت عساكر بوليس وعمال بناء ومكوجية . وطفت بأكثر بلاد أوربا ، نمت على شاطىء بحيرة جنيف ، وفى فندق الكنجز هوف على شاطىء الراين ، وفى فندق الصخرة فى جبل طارق . وفى المنصور فى الدار البيضاء ، وفى المنزه فى طنجه ، وفى الاكسلسيور فى روما ، ولكن لا يزال أجمل مكان أحن اليه واتمنى أن اقضى فيه بقية حياتى هو قريتى فى المنوفية ، وشارع المحطة فى الجيزة ، وضفاف بحيرة التمساح فى منطقة القناة .

عام ١٩٤٦ ، والولد الشقى لم يعد ولدا ، أصدقاء الطفولة كلهم مدرسون ومستوظفون فى الحكومة ، وبعضهم له زوجة وأولاد ، وأكثرهم يشترى بطيخا فى الصيف ، وبرتقالا فى الشتاء ، والعبد لله صايع ضايع ، تلميذ خايب فى مدرسة المعهد العلمى يتعثر ، حتى الموارد جفت . . عساكر الانجليز هجروا القاهرة الى منطقة القناة ، والدنيا اصابها الضنك الشديد .

عشرات الألوف الذين هجروا العمل فى الحقول خلال الحرب وزحفوا على المدينة ، فقدوا كل شىء الا الرغبة فى البقاء فى المدينة وعدم العودة من جديد الى القرى . المدينة حلوة ، مضاءة . وفيها طعمية وعيش سخن والنوم على الرصيف فى القاهرة ولا النوم على ظهر الفرن .

وفى صيف هذا العام تعرفت على رجل غريب ، بدين كأنه الممثل هاردى . . شعره منكوش كأنه فرد من أسرة ابوالغيط ، رجل لعب دورا هاما فى حياتى وفى حياة معظم الفنانين والأدباء أبناء جيلى اسمه زكريا الحجاوى . ولقد تعرفت إلى زكريا الحجاوى عندما سحبنى طوغان يوما من يدى الى منزل فى أطراف الجيزة لنلتقى بشخصية « هامة من شخصيات العصر » على حد تعبير طوغان ، وكنت قد قرأت اسم زكريا أكثر من مرة منشورا فى بعض الجرائد .

وكان لدى العبد لله فكرة عن مثل هؤلاء الناس الذين ينشرون أسماءهم فى الجرائد . . فكرة تقول انهم لابد أن يكونوا أصحاء وأغنياء ومن سكان الزمالك ، ولكن بيت زكريا كان فى حارة وأسفل البيت دكان بائع سمين ، رجل غليظ سخيف يبيع أشياء أسخف ، مصارين الخرفان والبقر يقليها فى صاج أسود كالح وبزيت ولا زيت الأوتومبيلات ؟ .

وصعدنا سلما طويلا مكسورا حتى وصلنا الى شقة زكريا ، وعندما انفتح الباب أطل زكريا الحجاوى وصدمت ، فهذا الرجل الماثل أمامى لا ينم مظهره عن فن ولا أدب ، أصلح مهنة له أن يكون بائع كرشة أو تاجر فواكه فى سوق روض الفرج ، حافى القدمين بجلباب مخطط كأنه قلع مركب ضايعة تتجول فى النيل دون هدف ، وهز زكريا الحجاوى كنبوشه ودعانا للدخول . وفى حجرة عارية تماما كالشارع مع فارق واحد هو أن أسفلت الشارع أنظف بكثير من بلاط الحجرة .

دعانا زكريا الحجاوى للجلوس . . وعلى الأرض جلست . . جلست أحملق فى هذا الرجل السمين كقدرة الفول المدمس ، الطيب جدا كأنه نبى صغير ، الفقير أفقر من السيد غاندى . وعندما بدأ يتكلم احترمت زكريا الحجاوى ، فقد بدا أنه يعلم أشياء كثيرة ، وعندما حان موعد الغداء ، ارسل زكريا فاشترى بقرشين صاغ مصارين مقلية وبقرش جبنة وبطيخ وعشرين رغيف ، ورحنا نأكل فى مرح شديد كأننا على صلة وثيقة منذ عشرة أعوام .

وأحببت زكريا الحجاوى منذ تلك اللحظة . وعشت معه أياما سعيدة ومريرة ، وطفت خلفه فى ريف الجيزة نبحث عن سهرة وعن عشوة . ومن زكريا تعلمت الصبر وقوة الاحتمال ، فقد كان أبا لسبعة أطفال ولا يملك سبعة قروش . ومع ذلك لم تفارقه النكتة ولم يعرف اليأس طريقه اليه . وحول زكريا الحجاوى تعرفت على عدد من الصبية الصغار أصبح لهم فيها بعد شأن ، دكتور يوسف ادريس . وصلاح جاهين ، ومحمد عامر ، والشاعر محمد الفيتورى ، والشاعر صلاح عبدالصبور .

ولقد كنت محظوظا إلى أبعد حد اذ أتاحت لى الفرص التعرف على عدد من شخصيات العصر ، كل واحد منهم كان دنيا كبيرة وعالما بأسره !.

تعرفت الى مأمون الشناوى ومنه تعلمت النكتة . وفن السخرية . ومأمون كاتب ساخر لو اتيحت له الفرصة لكان لدينا أوسكار وايلد جديد .

وتعرفت بنجيب الريحانى فى آخر أيام حياته وعرض على الاشتغال معه فى التمثيل ، ولو بقى أعواما أخرى على قيد الحياة ، فلربما أصبحت الآن ممثلا يشار إليه بالحذاء .

وعرفت بيرم التونسى قبل أن يموت بخمسة أعوام وصاحبته واختلفت معه وأحببته حتى العبادة ، وعرفت عبقرى النغم المرحوم الشيخ محمد رفعت وكتبت عنه وهو لا يزال على قيد الحياة ، وعرفت الشيخ زكريا أحمد وسهرت معه الليالى الطوال . وصادقت تحفة عصره وزمانه كامل الشناوى .

عرفت عبدالرحمن الخميسى وهو فى قمة مجده وشبابه ، وعرفت محمد عودة وهو لا يزال يحبو فى دنيا الصحافة محررا مجهولا بعشرين جنيها على الورق ، ونصف جنيه فى الحقيقة .

وعرفت عشرات من الأدعياء . ولكن لحسن الحظ أن عدسة الالتقاط عندى كانت تعمل بدقة ، فوقفت دائما الى جانب ما هو حق ، وقاتلت دائما فى صف العدل ، ودافعت دائما عما أعتقده ، وكنت احيانا اعتقد ما ليس بحق .

وخسرت اشياء كثيرة بسبب رعونتى ، وكسبت أشياء أخرى بسبب وضوح موقفى . وذقت كل أنواع الحياة ، وعشت أياما طويلة فى هيلتون مدريد فى اسبانيا ، ونمت اياما فى حدائق القاهرة ، وانفقت مائة جنيه فى ليلة ، وقضيت عدة أيام أبحث عن قرش صاغ . وقابلت عددا كبيرا من الملوك ورؤساء الجمهوريات ، وصادقت عساكر بوليس وعمال بناء ومكوجية . وطفت بأكثر بلاد أوروبا ، نمت على شاطىء بحيرة جنيف ، وفى فندق الكنجزهوف على شاطىء الراين ، وفى فندق الصخرة فى جبل طارق . وفى المنصور فى الدار البيضاء ، وفى المنزه فى طنجة ، وفى الاكسلسيور فى روما ، ولكن لا يزال أجمل مكان أحن اليه وأتمنى أن اقضى بقية حياتى فيه هو قريتى فى المنوفية ، وشارع البحر فى الجيزة ، وضفاف بحيرة التمساح فى منطقة القناة . وعندما أغادر مصر فى رحلة الى الخارج أشعر بأننى سأختنق وأموت ، شعور لا يفارقنى أبدا الا عندما أضع قدمى فى ارض مطار القاهرة .

ولقد عشت حياتى بالطول وبالعرض وبالعمق كذلك . ولست نادما على شىء ، اللهم الا حادثا واحدا حدث منذ أعوام عندما تورطت بين خصمين ، وخدعنى أحدهم فتسببت فى جرح شعور الخصم الآخر ، ولم يكن هذا رأيى فيه ولم أكن أعرفه ، ولم أره فى حياتى حتى هذه اللحظة .

ولو اننى عدت الى الحياة من جديد لاخترت حياتى هذه ، كما حدثت ، وكما وقعت . وبالتفاصيل ، ولتمسكت بأحزانها قبل أفراحها وبالتعاسة التى فيها قبل السعادة التى تشيع فى أرجائها ، ولكنى شديد الحزن لأننى لم أحب الرياضة فى صباى ، ولأننى لجأت الى احد الباشوات فى يناير ١٩٤٨ لأهرب من الخدمة العسكرية . ولو أننى لم ألجأ الى هذه الطريقة فلربما تمتعت بصحة أحسن ولربما كانت مصارينى الآن قادرة على هضم الفراخ كما كانت قادرة فى الماضى على هضم القباقيب . ! .

لقد كتبت حتى الآن عشرات الكتب وثلاث مسرحيات ومئات البرامج الاذاعية ، ومقالات تكفى عشرة دكاكين تبيع فيها اللب والى عدة قرون . ولكن أمنيتى التى

لا أزال أرجو تحقيقها هى العثور على قطعة أرض فى بلدنا ، فدان أقيم عليه بيتا وأطلق فيه عدة أسراب من الوز والحمام وفصائل من الأرانب ، وأزرع حوله عيدان الملوخية ، وأضع على سطحه عشرة بلاليص فيا جبنة قديمة ومخلل . وأرتدى جلبابا أبيض وطاقية فوق رأسى ، وأمشى حافى القدمين واستحم اذا شئت فى ماء الترعة ، ويكون لى عشرون ولدا نصفهم ذكور والنصف الآخر من الاناث ، على أن أقيم الى جوار البيت قبرا لشخصى ، فأنا أخاف النوم فى المقابر البعيدة ، أخشى بعد الموت أن ينهشنى ذئب جائع أو ضبع صايع . وأخاف الحياة مع الموتى ، أريد الموت الى جانب الأحياء . لكى أظل معهم ، اتفرج على الأجيال الجديدة السعيدة التى ستملأ الحياة فنا وورودا ورقصا وموسيقى .

وأرجو ألا أموت قبل سن التسعين ، لكى أعيش على هذه الارض أطول فترة ممكنة ، ولكى أرى اكبر عدد ممكن من البلاد ، ولكى اتعرف الى اكبر عدد ممكن من الناس ، ولكى أقرأ أكبر عدد ممكن من الكتب ، ولكى أموت وليس لى فى الحياة مطمع جديد !.

والآن وقد قرأتم قصة الولد الشقى أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بها ، وأرجو أن تكونوا قد استخلصتم المغزى من بين سطورها . وأنا أقصد الأجيال الجديدة التى تواجه ظروفا أسعد من ظروفنا ، والتى تعيش حياة أجمل من حياتنا ، والتى لم يقدر لها أن تخوض فى بحر التعاسة الذى خضناه منذ عشرات السنين .

ولسوف أكتب مذكرات الرجل الشقى بعد أعوام أخرى اذا قدر لنا أن نكون من بين السعداء الأحياء .

وهى قصة مريرة بدأت بالعمل فى الحكومة مستوظفا بستة جنيهات شهريا ، أعقبها الطرد بعد شهر واحد والصياعة من جديد ، ثم العمل فى صحف لم يكن لها وجود عندما كانت الصحافة عملية استرزاق ، ورخص تصدرها وزارة الداخلية لأصحاب مطابع شارع محمد على المتعاونين بشدة مع البوليس السياسى وبوليس السراى ! وعندما كان الصحافة صلات ببعض الوزراء . وبعض مديرى المكاتب .

لقد فصلت ثلاث مرات من ثلاث صحف قبل الثورة ، فصلنى مرة تاجر حشيش دفع ألف جنيه للجريدة لأننى كتبت خبرا ضده ، ولهفت الجريدة المبلغ وكتبت فى صفحتها الأولى « تقرر فصل محمود افندى السعداوى من هيئة تحرير الجريدة » والرجل الذى كتب هذه السطور دخل السجن فى قضية أخلاقية وكان يومئذ مديرا للتحرير .

وفصلت مرة أخرى من مجلة أسبوعية لأننى طالبت صاحب المجلة بمنحى أجرى عن شهر كامل اشتغلته . وفصلت مرة ثالثة من دار كبرى لأننى رفضت أن أشترى هدية بعشرة جنيهات لسيادة مدير التحرير !.

ولم أعرف طعم الاستقرار فى الصحافة الا منذ عام ١٩٥٤ ففى ظل عبدالناصر أصبح للصحفيين حقوق وعليهم واجبات ، وفى ظل الثورة عبرت الحدود الى الخارج فى مهام صحفية ، كانت أولها وأعظمها رحلتى الى الجزائر ، أرض البطولة والشهداء !.

وتضاعف مرتب العبد لله عشر مرات ، وتضاعف دخلى مائة مرة ، ومع ذلك لم أغادر الجيزة ولا الحى الذى نشأت فيه ، والسبب بائع طرشى يقيم معملا على بعد مرمى حجر من بيتى ، يقدم « طرشى » ليس مثله فى أى مكان ولا فى جنة رضوان ! والسبب صديق أحبه أسمه عبدالحميد قطامش ، عرفته منذ نصف قرن عاما وكان يرتدى الجبة والقفطان ثم هجرها بعد ذلك وصار من أعلى وأبرع المحامين فى مصر ، وقد أقسم عبدالحميد قطامش مرة الا يزور أحدا لا يكون من سكان الجيزة وبولاق وباب الشعرية ومصر عتيقة وبركة الفيل ، ذلك أنه يحس كأنه يغرق فى بئر ساقية اذا زار صديقا له فى الزمالك أو جاردن سيتى أو مصر الجديدة . وأنا أحب عبدالحميد قطامش وتمنيت أن يزورنى على الدوام .

ذلك أن عبدالحميد قطامش الشاب المعمم الذى هجر الريف يوما فرارا من الفقر الى الازهر فى القاهرة . والذى استطاع أن يقهر كل الظروف ، وأن ينتصر على كل التعاسات ، وأن يبرز فوق السطح ، عبدالحميد قطامش الذى أصبح أفوكاتو وله صيت عظيم ، مات لسوء الحظ وأنا فى المنفى وسأكتب لكم قصة قطامش - عندما يحين الوقت لأكتب لكم .. مذكرات الرجل الشقى

للمؤلف

السماء السوداء .... مجموعة قصص
جنة رضوان .... مجموعة قصص
الجزائر أرض اللهب .... رحلة الى الجزائر
دولة الظرفاء .... دراسة عن النكتة
الحان السماء
عزبة بنايوتى .... مسرحية
بنت مدارس .... مجموعة قصص
حتى يعود القمر .... رواية
الموكوس فى بلاد الفلوس
الافريكى .... مجموعة قصص
الأورنس .... مسرحية
النصابين .... مسرحية
بين النهدين .... مسرحية
المضحكون .... دراسة
مسافر على الرصيف .... دراسة
بلاد تشيل وبلاد تحط .... رحلة
السعلوكى فى بلاد الافريكى .... رحلة
رحلات بن بطوطة .... رحلة
مصر من تانى .... دراسة

رقم الايداع ـ ٣٤١٠ / ٩٧
I. S. B. N.
الترقيم الدولى : 8 - 0599 - 08 - 977

وجهة نظر

بقلم : كامل الشناوى

كنت أعتقد أن خيال محمود السعدنى أقوى ما فيه ، فهواذا كتبت أو تحدث ، أضفى على ما يكتبه ، وما يقوله صورا يستمدها من خيال أوسع من عقليات العلماء ، وذمم المرابين !

ولكن مذكرات « الواد الشقى » أثبتت ان ذاكرة السعدنى اقوى من خياله . انه يروى أحداث طفولته بدقة وتفصيل ، كما لو كانت هذه الاحداث قد وقعت له منذ لحظات ولقد توهمت وأنا اتابع حلقات هذه المذكرات فى « روز اليوسف » ان خيال السعدنى قد طغى على الحقيقه . ولكن اصدقاء طفولته الذين زاملوه فى الحاره ، أكدو لى أن السعدنى قدم نفسه فى مذكراته وهو متجرد من خياله ، ومن ثيابه معا !

والصورة التى تطالعنى للسعدنى من خلا ل مذكراته ، انه كان فى طفولته يملأ حجره بالطوب ، ويمشى فى الحارة ، ويقذف الناس ، ويجرى ...ولا هدف له إلا ان يضحك من رؤيةمن يقذفهم وهم يتوجعون !

هذا الولد الشقى فى الحارة ، أصبح الولد الشقى فى الصحافة فهو يملأ حجرة بالطوب ، ويقذف أهل الفن ، ولاعبى الكرة ، ويجعل منهم مادة للهزء والسخرية ..

والفرق بين محمود السعدنى فى الحارة ، ومحمود السعدنى فى الصحافة ، انه وهو فى الحارة لم يكن له هدف من إلقاء الطوب على عباد الله إلا أن يضحك منهم ، ويجرى ... أما السعدنى فى الصحافة فإنه يهدف من إلقاء الطوب إلى تقويم ما يراه معوجاً ، بالمنطق ، والعنف ، وبالأسلوب النابض الساخر الذى يتحدى من يهاجمهم ألا يشعروا باللذة وهم يقعون تحت ضربات قلمه القاسى !

وهو فى الصحافة يلقى الطوب على ضحاياه، ولا يجرى !

يخطىء من يظن أن السعدنى سليط اللسان فقط .. إنه سليط العقل والذكا[ء] وهذا سر جاذبيته، كصحفى، وكاتب، وإنسان .

كامل الشنا[وى]



طبعت بمطابع دار أخبار اليوم